

في الوقت الضائع (٢)

توفيق الحكيم





توفيق الحكيم

في الوقت الضائع

(٢)

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ــ محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦

٢ ــ عودة الروح (رواية) ١٩٣٣

٣ ــ أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣

٤ ــ شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤

٥ ــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧

٦ ــ عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨

٧ ــ تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨

٨ ــ أشعب (رواية) ١٩٣٨

٩ ــ عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨

١٠ ــ حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨

١١ ــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩

١٢ ــ راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩

١٣ ــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠

١٤ ــ حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠

١٥ ــ سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١

١٦ ــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١

١٧ ــ تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢

١٨ ــ بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢

١٩ ــ سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣

٢٠ ــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ــ رسائل) ١٩٤٣

٢١ ــ الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـــة فى أمريكــــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيـــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلـة الحكـم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .
الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .
العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .
دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .
لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .
الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ـــ لندن .

الشهيـــد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزيـــة) جمع محمـــــود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعـات الجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة ـــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان ـــ لندن .



صفحة



الآن وقد شاءت رحمة الله أن أصبح في مرحلة الوقت الإضافى ، لا أجد ما أقدمه لكل من أحاطونى باهتمامهم « مناصرين ومعارضين » خصوصا فى فترة مرضى التى طالت كثيرا ، خيرا من أفكارى وخواطرى التى كتبتها فى الوقت الضائع ، علهم يجدون فى كتاباتى الأخيرة فائدة ونفعا .

توفيق الحكيم



حديث إلى قرائى

● فى سلسلة أحاديثى التى كنت قد بدأتها بالمناجاة فى صورة « حديث مع وإلى الله » ثم « حديث معى نفسى » .. أواصل فيما يلى أفكارى وخواطرى تحت عنوان : « حديث إلى قرائى » . أعرض عليهم فيه ما كنا نفكر فيه ونكتب منذ نصف قرن من الموضوعات المختلفة التى تشغل مجتمعنا ولم تزل تشغله مثل الدين والعلم والأدب والفن والمرأة والحكم ونحو ذلك .. مما يتكون منه هيكل الثقافة العربية بلغتها وتراثها .. بما يمكن أن يطلع القارئ على صورة خاطفة لتفكيرنا منذ عصر التنوير ، وهل تقدم أو تأخر ؟ أو لبث واقفا فى مكانه منذ نصف القرن ، وظل مجتمعنا كما كان ، بمشكلاته وأفكاره .. وأظن من واجبى فى هذه المرحلة الأخيرة من حياتى أن أنظر إلى هذه السنوات الخمسين من وجودنا وأصحب قارئى معى فى هذه النظرة .. وليس عندى من وسيلة إلى ذلك سوى عرض نماذج تجسد هذا التفكير فى هذه الموضوعات المختلفة . وأسأل الله التوفيق .. ●

من حصاد العمر

عام ١٩٣٣ « من رسائل متبادلة مع طه حسين »

« ... نحن متفقان ، ولا خلاف بيننا فى الغاية . وهذا هو مطلبنا .. هناك تفاصيل أفترق فيها عنك . ولن أعود إليها . فأنا أفزع من النظر إلى الوراء : حشية أن أتحول إلى تمثال من الملح .. أو حتى إلى تمثال من الذهب .. نفسى تصدف أحيانا عن الفكرة الجامدة مهما تكن قيمتها ، ويحلو لى أحيانا أن أنثر الأفكار من نافذة قطار .. إن رسائلنا فى حقيقتها لا تعى أكثر من إثارة الغبار فى أرض نائمة مفروشة بالحصى .. لسنا نصدر أحكاما بهذه الكتب السريعة .. وإنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض ، سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال .. اتفقنا إذن ،أو ينبغى لنا أن نتفق على أى حال ، حتى ننصرف إلى شيء جديد .. إن البحث عن الجديد هو الخليق عندى بالمجهود .. ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد صديقنا « أحمد أمين » .. قال لى ذات مساء إنه يود لو وضع كتابا فى أصول النقد .. النقد ؟ لفظ رن فى أذنى . وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها « الخلق » .. وقلت فى نفسى : ما يمنع من إتمام الكلام فى رسالة ثانية يكون موضوعها « النقد » ؟ وإذا الأمر يتكشف لى عن قضية كبيرة : أنعد النقد كالخلق ، خاضعا لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرتها فى رسالتك السابقة لى : التيار المصرى القديم والتيار العربى والتيار الأوروبى .. أم بعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات ؟.. أما أنا فلن أجيب من فورى عن هذا السؤال .. فأنا أكتب ولا أدرى أين يخط بى القلم .. دعنى أولا أنشىء على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعنى الآن بالغاية .. دع الغاية .. الغاية أحيانا رخيصة بجانب الوسيلة .. على الأقل فى نظر الفن .. لأن الغاية فى الفن لا تبرر الوسيلة .. الحياة كذلك .. تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق .. أهى شيء

غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألها معنى فى نظرنا غير ذلك الطريق الذى أوله ضباب وآخره ضباب ؟.. خط هندسى رسم على لوح الوجود .. كيف ابتدأ ؟ كيف انتهى ؟.. لا يعنى ذلك علم الهندسة .. إنه خط بين نقطتين وكفى .. ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم .. إن الغاية لا تهم .. إنما المعنى كله فى الوسيلة .. الحياة هى الطريق « النهج » والعلم هو الطريقة « المنهج » والفن هو الأسلوب .. أما الغاية فلا غاية .. « هى المجهول الذى فى علم الله » .. وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوما من الأيام ؟.. محال .. ما نحن إلا أسلوب الخالق .. ما الكون إلا أسلوب .. الأسلوب هو عمل كل خالق ، وفى كل خلق .. إن الخالق الأعظم هو أعظم شأنا من أن يحبس إرادته الخالدة فى حدود « غاية » لأن اللفظ نفسه « الغاية » يدل على معنى « النهاية » .. والنهاية والانتهاء الذى تقف عنده الغاية لا يمكن أن يكون من صفات الله تعالى .. إن كلمة « غاية » من صنع العقل أو الإدراك البشرى الصغير .. والعقل المحدود يضع كل شىء داخل حدود .. ويأبى إلا أن يكون لكل شىء أول وآخر « وبداية ونهاية وطريق وغاية » .. إنما الخلود فى الأسلوب ، لأن الأسلوب ليس له آخر .. إن رجل الفن .. وهو المقلد الصغير للمبدع الأكبر يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية .. لأن الغاية فانية ولها نهاية كاسمها .. وإنما يعيش الفن بالأسلوب .. لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام .. دفن الملوك غاية ماتت ، وبقى أسلوب الفن وحده باقيا حتى اليوم والغد فى بناء الأهرام .. الأسلوب إذن هو عماد الخلق (وإن كانت « الغاية » فى الإصلاح للنفس والمجتمع مهمة عند الفنان ، لأنه بشر). كما أن « الغاية » قد توجد ، وتكون خارجة من الأسلوب نفسه . وهى « غاية » عليا مجردة من كل غرض سوى معرفة الله فى أسلوب خلقه . وتظهر عند بعض العلماء الذين يكرهون .. التكنولوچيا .. لأنها متصلة بالغرض النفعى . وربما كان هذا أساس مذهب « العلم للعلم » و « الفن للفن » بمعنى التجربة لغاية واحدة هى : معرفة الله وحبه لذاته من أسلوب خلقه . وهذه « الغاية » المتجردة قد تصل إلى « التصوف » ..

وكل هذا .. على الرغم من أن جوهر الخلق أسلوب) ... وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر ، فى جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو إليها البشر .. ولعل كل ما أوتيه الإنسان ، من سليقة سامية منذ أول الأزمان ، ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق الأعظم فى نفس الإنسان .. هذا الشعور بالتناسق والتناسب ، هذا الإدراك للصلة التى تربط الشىء بالشىء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟.. أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق .. فتحت البشرية عينيها فألفته حولها ، فهو موجود قبلها .. وقبل الخليقة ، كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء .. إن أسلوب المبدع الأعظم فى صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها .. صفات هى بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فنى عظيم .. أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير .. إن المنطق الذى شيد الأهرام هو صورة للمنطق الذى شيد الكون .. على أن الكون وقد خلقه الله وأوجد فى أرضه البشر ، وجعل للبشر طبائع من خير وشر ، ومجتمعات فيها الصالح لهم والضار .. فقد أصبح هذا البشر فى حاجة إلى مصابيح هداية تضىء لهم طرق السلامة والتقدم فأرسل إليهم الرسل والأديان ، كما سخر لهم العقول والأقلام ليكون لهم « غاية » بشرية هى منفعة البشر ... إلى جانب الغاية الإلٰهية وهى معرفة الله وعظمته فى أسلوب خلقه .. ولقد جاء فى رسالتك لى ذكر للتيار الأوروبى وهو القائم على العلم . ولا بأس به — بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن يقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا ، ومن ينابيع معتقداتنا وطبيعتنا القائمة على أساس زواج الروح بالمادة : وتلك ينابيع فكر كامل ، مدنية متزنة ..

(مجلة الرسالة ١٩٣٣)

فى الوحدة العربية

عام ١٩٣٨

الوحدة العربية فى نظرى ليست صب العرب فى دولة واحدة .. لأن هذا مستحيل . لاختلاف طبيعة الأرض والتاريخ والشخصية لكل بلد عربى .. وكما أن كل شقيق له شخصيته المستقلة عن شقيقه فى الأسرة الواحدة .. كذلك كل دولة عربية لها وجودها وتاريخ أرضها .. وظروف حياتها مما يجب المحافظة على كيانه . وعلى كل شقيق أن يراعى ذلك ويحرص على عدم المساس بشخصية شقيقه وتشجيعه على التقدم . والتقدم لن يتأتى إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق « والعرب » فى أول الأمر على ما يملك . ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها .. حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد « العربية » قدر عظيم من تلك اللآلىء القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك وقدم إلى الإنسانية باسم « الثقافة الشرقية العربية » . فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية ، فإنى أحب أن نتذكر دائما أننا إزاء الغرب لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها .. إن طابعنا الفكرى ، وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدنا وتراثنا وإحساسنا بالجمال الذهنى ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء .. كل ذلك ينم عن عقلية خاصة ، وعبقرية مستقلة لا ينبغى أن تتحلل أو تزول تحت طغيان موجة أقوى .. فإذا نادينا بالوحدة العربية فإنما ذلك لندعم كتلة « الروح الشرق » أمام كتلة « الروح الغربى » ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

الشخصية المصرية

عام ١٩٣٣

لابد لنا أن نعرف من المصرى ؟.. هذا السؤال ألقيته على نفسى منذ سنوات إذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والإغريقى .. وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت .. قلت سائلا .. ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد ، وعند فن الإغريق عارية تماما ؟.. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق : كل شيء فى مصر مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الإغريق . نعم .. كل شيء فى مصر خفى كالروح ، وعند الإغريق جلى كالمنطق ففى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة العقل .. نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام : إن المثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث الشكل الظاهر .. إنما تعنيه الفكرة . إنه يستنطق الحجر كلاما وأفكارا وعقائد ... « فهو من حيث تعبيره عن أفكار وعقائد أعتبره من الفن الملتزم » .. لأن الفنان المصرى له بصيرة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة .. كل شيء فى مصر إلـٰهى .. مصر أمه مستقرة مؤمنة .. والتفكير فيما وراء الحياة ظهر على وجه الفن المصرى .. ولا شيء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها . ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » وفى الفن الإغريقى كلمة « الحياة » . وحظ الإغريق مثل حظ العرب . فالعرب أمة نشأت فى صحراء قفراء ، قليل من الماء يثير الحرب والدماء . أمة لاقت الحرمان . وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار .. أمة حلمت بلذة الحياة .. تفكير العرب وفن العرب فى لذة الحس والمادة .. فن الزخرف العربى هو فى الحق أجمل وأعجب فن زخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف .. كل شيء عند العرب زخرف .. الأدب من نثر وشعر إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس .. فسيفساء اللفظ والمعنى . الغناء

العربي إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات لذة للأذن ، كذلك التصوير العربي على جماله ودقته تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات .. مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجها الدرهم وعنصرا الوجود .. أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ! إنى أتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة والبناء بالزخرف ..

(من رسائل متبادلة مع طه حسين ـــ مجلة الرسالة ١٩٣٣)

فى استقلال التفكير

عام ١٩٤٧

قالت العصا : هل هناك علامة تدلنا على أن شخصا من الأشخاص قد وصل إلى مرحلة الاستقلال فى التفكير ؟.. قلت : نعم . هناك علامة بسيطة هى أن نرى الشخص يعرف منبع تفكيره ، وأن يعترف بأثر غيره فى هذا التفكير ... هكذا نرى « غاندى » يقر دائما أنه مدين بفلسفته إلى « تولستوى » .. ونرى « محمد عبده » يقول إن أستاذه فى تفكيره هو « جمال الدين الأفغانى » .. وأرسطو يكرر أنه تلميذ أفلاطون حتى رغم ابتكاره هو لمذاهب أخرى .. وجوته يعلن تأثره بتفكير ڤولتير إلخ .. هذه المعرفة بالمنبع ، وهذا الاعتراف بالتأثر ، هما دليل الشخصية الفكرية أو الفنية التى تشعر أنها استقلت بالفعل ، وأصبحت لها الذاتية الخاصة ، وأنها بلغت فى استقلالها وذاتيتها الحد الذى ترى معه جذورها ، ولا يضيرها أن تذكرها وتتيه بها .. على عكس الشخص المبتدىء أو الشاب فى مطلع تفكيره ، فإنه لا يستطيع أن يرى المنبع . وإذا استطاع فإنه يخفيه فى الحال عن نفسه وعن الآخرين مؤكدا أنه لم يتأثر قط بأحد ولا بشىء .. قالت العصا : حقا إن استقلال التفكير لا يبدأ إلا فى النضج ، فيعرف ويعترف ..

(عصا الحكيم ١٩٤٧)

فتور الحركة الأدبية

عام ١٩٤١

من المسئول عن فتور الحركة الأدبية الملحوظ عندنا ؟.. لا ينبغى أولا أن نعلل ذلك بالحوادث الدولية .. فإن الفتور كان دائما موجودا فى جونا الأدبى قبل أن تنشأ هذه الظروف .. ثم إن المشاكل السياسية وتأثيرها فى النفوس والشعوب لم تحل فى أوربا دون اهتمام الناس بشئون الفكر وعناية الجمهور بالكتب والأدب . فما زالت الصحف الأدبية تتحدث هناك عن ظهور الكتب الجديدة والأدباء الجدد بعين الحماسة التى تتحدث بها فى كل زمان .. وما زالت المسابقات الأدبية ، والجوائز السنوية تهز الناس وتثير نشاط الكتاب كما تفعل فى كل حين . فأحداث السياسة مهما يعظم خطرها لا يمكن أن تشل فى أى بلد متحضر حركة الفن والفكر .. فالأمة الراقية شأنها شأن الإنسان الحى مهما يعرض له من الحوادث ، فإن رأسه دائما هو الرأس اليقظ الذى لا ينى عن التفكير .. إذن ما بال هذا الرأس فى بلدنا نائما ؟ وما بال الناس لا يشعرون أن فى بلدنا أدبا يتحرك ويتطور وأن فيها أدباء يعملون وينتجون ؟ ما يكاد يمضى شهر حتى تخرج المطابع كتبا فى الشعر والنثر .. وما يكاد يوم يولى حتى يجيئنى البريد بكتاب جديد أو بديوان شعر جديد .. كم من الأدباء الجدد والكتاب الناشئين يخرجون عندنا فى كل عام أعمالا جديرة بالكلام .. بل كم من الأدباء الناضجين ينشرون آراء خليقة بالمناقشات .. ولكن كل ذلك يمر فى فتور كأنها نسمات فى دنيا الأموات !.. ما العلة ؟.. العلة بسيطة : ما من أحد فى هذا البلد يبدو عليه التحمس الملتهب لشئون الفكر والأدب .. إن علة الفتور الأدباء أنفسهم .. إنهم فى ميدان الأدب أقل نشاطا منهم فى ميدان السياسة مثلا .. إنهم يكتبون فى الأدب !.. إن أقلامهم لا تثير فكرا فى جو الأدب وكأنهم ناعسون !.. إن أقلامهم لا تثير فى جو الفكر حراكا .. وهنا الفرق

بين أدبائنا وأدباء أوروبا .. إنهم هناك فى يقظة أدبية .. ومن كان فى يقظة استطاع أن يوقظ الآخرين ...

(من البرج العاجى ١٩٤١)

دواء الغلاء

عام ١٩٤٧

قالت العصا : لا حديث للناس اليوم إلا عن الغلاء : هذا الداء المستعصى الذى تعبت الرؤوس وكلت الهمم فى البحث عن علاجه . ألا ترى له من دواء ؟.. فلنبحث أولا عن أصل هذا المرض . بعيدا عن نظريات العلماء والخبراء .. إنه فى حقيقة الأمر لا يختلف كثيرا عن أى مرض من تلك الأمراض التى قيل فيها قديما : « البطنة أصل الداء ، والحمية رأس الدواء » . فمهما يكن من قوة الأسباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر فى السوق ويرفع الأسعار ، فإن السبب الأكبر هو فى أيدينا نحن ، بل فى بطوننا .. فمواد الطعام من لحم وخبز وأرز وفاكهة لن ينخفض سعرها فى أى يوم مادمنا نريد أن نضعها على موائدنا كل يوم .. إن شراهة المنتج والبائع إنما تنبع من شراهة المشترى والمستهلك .. وإليكم تجربة تثبت ذلك بالدليل : قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة بكافة طرق النشر لتحديد الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل بيت . محذرين من أكل الفاكهة أكثر من مرتين فى الأسبوع ، واللحم أكثر من ثلاث مرات ، والأرز أكثر من مرتين أو ثلاث .. واحملوا حملة شعواء على الإسراف والتبذير والترف فى المأكل والملبس ، وروجوا للقناعة والبساطة .. ولا أقول للزهد والتقشف كما فعلت إنجلترا منذ عامين ونجحت ، لا فى مقاومة الغلاء فقط ، بل فى القضاء على أزمتها المالية .. افعلوا هنا ذلك وأنتم ترون الكروش قد اختفت ، ونقص الترهل ومرض السكر وضغط الدم ، ونزول الأسعار وتعمير الجيوب وإطعام الفقير والغنى .. قالت

العصا : حقا لا فائدة من علاج الغلاء قبل علاج البطون .. بطوننا وترفنا .. لا شيء يقتل البائع الطامع غير المشترى القانع ..

(عصا الحكيم ١٩٤٧)

فى الشعر

إلى الله :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ... ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

أمنية ظفرت روحى بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وإن يكن فرط وجدى فى محبتكم ... إثما فقد كثرت فى الحب آثامى

(ابن الفارض)

* * *

فى الديـن

أهناك حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟ إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى فإن هذا القول يؤدى حتما إلى نتائج غريبة .. ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ، فما يصدق عند العقل قد لا يصدق عند القلب .. يقابل ذلك فى المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس ــ فعالم البصر منفصل عن عالم السمع . والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية .. فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك هذه الحقيقة ولا تعرف ما هو الحجر وما شكله ؟ لأن عالمها وهو عالم المرئيات .. والعقل لا يدرى إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة العقلية ليست الحقيقة كلها . ولكنها الحقيقة التى يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذى يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع فى دائرة القلب .

أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل . وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد داخل جسم الإنسان مثلا أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الإنسان الخارجى ؟.. فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التى تمر بالحواس .. وإن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه ــ فالتوفيق بين العلم والدين من هذه الناحية ضرب من العبث .. على أن اجتهاد المجتهدين فى هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى المبنى على الأخلاق .. وهنا يتساءل الناس دائما : ما الدين ؟ أهو شىء مفيد للبشر فى حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟ فالدين باعتباره قانونا اجتماعيا ينظم الغرائز ، ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، أمر متعلق بذات الإنسان ، متصل إذن بعقله وعلمه .. إنما قوة الدين وحقيقته

فى الإيمان بالذات الأزلية .. هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك الذات الإلٰهية إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنسانى ، بل يقصر عنه كل علم . لأن العلم معناه الإحاطة . والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل .

هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر .. وإنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء ، كلما قام باحث يتكلم فى الدين عن طريق العقل . فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة ، مهادها المعاهد والجامعات ، ولابد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر ، كما أنه لابد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق .. فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاءون ويثرثرون كما يريدون .. وكل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب ، الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح ، رغما عنهم ، بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة !. والدين أيضا فى جوهره علم وفكر .. « ولا عبادة كتفكر » كما قال الرسول صلوات الله عليه ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨

الأزهر والحياة العقلية

عام ١٩٣٩

نشرت بعض الصحف أن وزارة المعارف تلقت من الأزهر كتابا كذبه الأزهر فيما بعد بشأن خطر كتاب « يوميات نائب فى الأرياف » بقلم توفيق الحكيم مدير إدارة التحقيقات بالوزارة . وهذا لتعرضه لهيئة القضاة الشرعيين . وقد قابل أحد مندوبى الحوادث الأستاذ توفيق الحكيم وسأله فى الموضوع فأجاب : « إنى بصفتى كاتبا اجتماعيا قد أردت فى كتابى إبراز صورة للقضاة الشرعيين إلى جانب الصورة المرسومة فيه للقضاة الأهليين ولرجال النيابة والبوليس وأطباء الصحة والعمد وغيرهم .. ولا

أظن القضاة الشرعيين يتمتعون بقداسة خاصة وحصانة دينية تجعلهم فى مكان لا ترتفع إليه يد النقد والإصلاح ... ولا شك عندى أن مستقبل مصر والعرب متوقف على ضمان حرية العقول والأفكار . الحرية الضرورية لكل نهضة حقيقية .. وفى صحف ذلك العهد ما يتعلق بأزمة الحياة الفكرية فى مصر .. ولم يكن قد مضى عام على أزمة سياسية تعرضت لها وخصم من مرتبى نصف شهر وكنت مهددا بالفصل : نعم . السياسة والدين : مصدرا قوة .. فى إساءة استخدامها خطر على الحياة العقلية ..

(صفحات من التاريخ الأولى لتوفيق الحكيم ـــ دار المعارف)

الإيمان بالحياة

عام ١٩٤٨

فى إحدى المصحات فتاة ، قاتلت الموت حتى انتصرت . وهى الآن فى طريق الشفاء . تجلس الساعات الطويلة من فترة النقاهة تقرأ وتفكر وتتأمل .. وهى فيما يبدو قد فقدت بعض الإيمان بالحياة ، وخيل إليها أن الأفق ملبد بالظلام . فهى تمد يديها تلتمس النور .. إنها كسفينة غالبت الأمواج ، وقارعت الأنواء ، وخرجت من زوبعة الليل بعد أن كاد يطويها اليم ، تتمايل وتئن باحثة عن الهداية فى شعاع منارة أو خيط فجر .. اتجهت إلىّ أنا لأدعم إيمانها وأبدد حيرتها . وكان الواجب أن أحييها فى رسالة خاصة ، فالأمر يعنيها وحدها . ولكن خطابها الحامل عنوانها ضاع منى ، ووقعت أنا فى حيرة من أمرى لا أدرى : أأسكت عنها أم أخاطبها فى كتاب ؟ وأخذت الحل الأخير . لأنى خجلت أن أصم أذنى وأقبض يدى عن نفس تتخبط فى الشك وتطلب الغوث .. أيتها الفتاة !.. أتدرين أين المنارة التى تهديك إلى الإيمان ؟ هذه المنارة قائمة بين جنبيك .. إنها قلبك .. هذا القلب الذى ظل ينبض فى أحلك ساعاتك ، كما ينبض محرك السفينة فى أعنف ساعات العاصفة .. هذا القلب .. لماذا استبسل هكذا دفاعا عن الحياة ؟.. لماذا لبث يدق دقات كأنها صرخات فى وجه الفناء .. يفزعه بها ويرده

على أعتابه ؟ لماذا يسير بخطواته المنتظمة أو المصطربة الليل والنهار ، لا تهمد له حركة ولا تخ . له نبضة ولا يخرس له لسان ؟.. إنه حارسنا ضد الموت .. إنه على حصن حياتنا الديدبان .. قلبك يذود عن الحياة ويناضل عنها نضال البطل ، لأنه يؤمن بالحياة . إنما الذى يشك هو عقلك .. هو تفكيرك ومنطقك .. هو ذلك الشيء المصطنع فينا .. ذلك الشيء الذى اخترعناه وملأناه بأيدينا .. أما القلب المؤمن بالحياة ، الحارس لها الذائد عنها ، دون أن نتدخل فى عمله فهو ذلك الجزء الذى وضعه الله !.. لا يستطيع عقلنا ، لحسن الحظ ، أن يصدر أمره إلى القلب فتقف نبضاته ، كما يصدر أمره إلى الأيدى والأقدام فتقف حركتها .. لا أحد غير الله ، هو الذى يستطيع وحده أن يصدر أمره إلى القلب .. ولقد أمر الله تعالى قلبك أن يصمد للمحنة فصمد .. وما دمت قد انتصرت على الموت ، فلماذا لا تنتصرين على الحياة ؟.. ما الذى يخيفك من غدك ؟ أشباح ربما كانت تتصاعد من جوف كتبك ومطالعاتك وتأملاتك .. ليس أقسى علينا من خيالاتنا .. ليس أفتك بنا من أيدى إرادتنا وصنع أيدينا .. وليس أرحم بنا من يد الله ، وما خلق وأبدع .. نصيحتى إليك أن تتركى الكتب برهة وتتأملى الطبيعة .. استيقظى مع الفجر ، واستنشقى نسماته ، وأصغى إلى العصافير وهى تفتح أعينها وتترك أعشاشها ، وتقف قليلا فوق الأغصان المرصعة بالندى ، تنفض ريشها ، وتشقشق وتنشر أجنحتها ، وينقر بعضها البعض مداعبا ، ويفر بعضها من بعض ملاعبا .. كلها غبطة بالفجر . وكلها فرح بالحياة .. لا يقعدها عن ذلك سحب ملبدة ، ولا جو مطير .. إنها تحتفى بالفجر فى اليوم المشرق واليوم المكفهر ، وتحتفل بوجودها إذا صفا الأفق وإذا أظلم بالضباب ، لكأنها أنشودة الحياة تطير فى الجو ، صادحة منذ مطلع النهار ، تلقى فى سمع القلوب اليقظة المؤمنة ما يملؤها تفاؤلا بالوجود واستبشارا .. أيتها الفتاة .. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك .. لا تلتمسى المعونة عند مفكر ، ولا عند عالم ، ولا عند فيلسوف .. بل التمسيها عند .. عصفور .. ذلك المخلوق الصغير الذى وضعت فيه قدرة الله إيمانا بالحياة ..

(فن الأدب ١٩٤٨)

نشيد السلام

عام ١٩٤١

كل شيء أمامى فى الريف يرتل نشيد السلام .. فشجيرات الفول الخضراء ترقص مع النسيم ، وترسل فى الفضاء من حولى أريج زهرها الأبيض كما ترسل القبلات المعطرة .. والبقرة ذات الأهداب الشقراء تتمطى فى أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ فى فراش دافىء .. والكلب رابض قد أغمض عينا وفتح أخرى تلقى على الكائنات نظرات الرضا والصفاء .. والدواجن والهوام والأرض السماء وجداول الماء . كلها بأصواتها الصغيرة وأزيزها اللطيف وصمتها الدائم وخريرها الهامس تتراءى للمتأمل كأنها تتبادل حوارا خفيا منغما بكلمات الود والحب والإخاء الأبدى ، وكأنها جميعا فى حركتها وسكونها جوقة موسيقية تخضع ليد غير منظورة ، كى توقع لحنا متناسقا أزليا لا يسمعه غير الأنبياء والشعراء .. صوت واحد نشز فى أذنى عن هذه المجموعة : هو صوت الإنسان .. فمتى ظهر ظهرت معه الفوضى ، ونشأ الخلاف حيث لا ينبغى أن يكون خلاف .. تلك طبيعته .. وقد تكون تلك أيضا عبقريته ..

(من البرج العاجى ١٩٤١)

مناقشــة

عام ١٩٤٤

لم يزل موضوع الأدب العربى ومستقبله فى حاجة إلى كلام ، على الرغم من الأدلة القوية التى ساقها « أحمد أمين » فى رده على كلمتى السابقة .. وأخشـى أن يتبادر إلى

الذهن أننا نتجادل فى قضية لنا فيها مصلحة .. فالواقع المعروف أن أكثر مؤلفات أحمد أمين مثل « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » بعيدة عن الاتجاه القومى أو الاجتماعى الذى يرجوه لأدبنا العربى . كما أن بعض كتبى مثل « عودة الروح » و « يوميات نائب فى الأرياف » قد رمت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن .. فأنا إذن أقرب إلى تلك الدعوة ولى فى نجاحها مصلحة أكثر مما لصديقى « أحمد أمين » .. ولكن العقيدة الأدبية والإيمان الفنى أقوى عند كل منا وأرفع من المصالح الخاصة والغايات الشخصية.. فمناقشتنا اليوم تقوم فى جوهرها إذن على الرغبة المجردة فى الوصول إلى غرض واحد : هو كيف نبلغ بأدبنا العربى قمة الكمال ؟ الغاية واحدة ولا ريب ولكن السبل مختلفة : « أحمد أمين » يرى أن أدبنا العربى لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوروبية إلا إذا خاض مثلها فى طريق الحياة العامة : فنقد الفاسد من أوضاع المجتمع . وقوم المعوج . واقترح وسائل الإصلاح . ونادى بالنافع من العلاج والمستحدث من النظم . وكان له من أعلامه مركز القيادة للرأى العام .. وهنا يجدر بنا أن نسأل :هل من الحق أن الأدب الأوروبى بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية فقط ، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية ؟ وهل نزعات الإصلاح الاجتماعى هى اللون الغالب فى الآثار الأوروبية أو أنها لون ليس بالغالب حتى فى آثار المؤلف الواحد ؟. إن الآداب الأوروبية لم تحترم يوما فنانا أو أديبا لأنه مصلح ، ولكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديبا أو فنانا .. نحن الشرقيين تبهر عيوننا دائما كلمة « مصلح » بقدر ما نستهين بكلمة « فنان » .. وإنى لا أنسى دهشتى يوم قرأت فى مجلة « ماريان » الباريسية نقدا للطبعة الفرنسية من « يوميات نائب فى الأرياف » يقول فيه ناقدها المعروف : « إن القارىء لهذا الكتاب ينسى المقاصد الإصلاحية التى حركت المؤلف لوضع كتابه ، بل قد يتمنى ألا يتغير شىء فى عالم هذه المخلوقات الإنسانية » . صدمنى هذا القول لأنى كنت أعتقد أن مقاصد الإصلاح لها الاعتبار الأول ، وأن صفة المصلح هى التى توضع موضع التقدير .

إن الفنان ليس مصلحا ولكنه هو صانع المصلح .. وكل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ما كونهم وهيأهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء

وشعر الشعراء وفن الفنانين .

إن قيادة الرأى العام واجبة على الأديب .. ولا ينسى « أحمد أمين » ندائى إلى الأدباء أن يتسلموا القيادة الروحية والفكرية فى أول هذه الحرب ، وما قام حول هذا النداء من جدل .. ولكن الذى أراه خطرا على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاها بعينه فى صميم فنه ، وحسبنا أن نتأمل حال الأدب فى البلاد التى كبلت وحى الأدباء بالقيود فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة ، تفوح برائحة واحدة كأنها خارجة من مطبخ واحد .. إن الفن هو الحرية . وقد دخل الأستاذ « العقاد » وصديق الطرفين فى المناقشة ، رابطا الحرية بالفردية . وقال : « إن اتجاه التاريخ الإنسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية ، إذ الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية.. هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها ! إن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس بإحساسه .. إنما هو يفكر ويحس بعريزة الجماعة كلها والنوع كله .. ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه .. إن الوعى الجماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيوانا ، والفردية أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنسانا » ..

(مجلة الرسالة ١٩٤٤)

الواقع والخيال

عام ١٩٤٢

قرأت المقالات التى نشرت أخيرا تعقيبا على ما جاء خاصا بالعقاد وقلة الالتجاء فى الفن إلى الخيال والاختراع ، فلم أر بينها ما هو جدير بالالتفات غير رد « العقاد » نفسه .. ورأيى فى ذلك يشابه رأى العقاد لأن اعتماده على الواقع فى قصته « سارة » (١٩٣٤) يشابه اعتمادى على الواقع فى « عودة الروح » (١٩٣٣) ، فلا ينتظر منى إذن أن أنتقص من قيمة الأعمال التى تبنى على الواقع .. على أن الحقيقة هى أن

العمل الفنى مخلوق جديد وكائن مستقل عن ذلك الواقع الذى يعيشه الفنان ويزعم أنه رواه بحذافيره . كان « جوته » يقول إن أقدر كاتب لا يرى مما يحيط به غير واحد فى المائة ، ولا يعى ويفهم مما رأى أكثر من واحد فى المائة ، ولا يستطيع أن ينقل إلى الناس مما وعى وفهم وأحس أكثر من واحد فى المائة .. إن الخيال فى العمل الفنى العظيم لا ينبغى أن يكون سوى وسيلة من وسائل إعادة الروح إلى تلك المشاعر الحقيقية التى صنعها الله وكادت تجرفها اللحظات الجارية لولا يد الفنان .. كلا .. إن الفنان ليس محرر تقارير ، إنما هو مقرر عواطف ومشاعر ، وليست الأمانة المطلوبة منه هى فى نقل الحوادث والوقائع ، إنما هى فى نقل الإحساسات الدقيقة والمشاعر الصادقة إلى جميع النفوس . إن المعول عليه فى الفن أن يستطيع الروائى وهو يسرد الحادث كما وقع كشف الستار قليلا عن تلك القوانين الخفية والحقائق الثابتة التى تحرك الأشياء والكائنات .. وهنا الفرق بين الصحفى والفنان : إن الصحفى يروى لك حادثا وقع فلا ترى غير مجرد الحادث . أما الفنان فيقص عين الحادث ، فإذا أنت قد غمرت فى جو آخر .. وإذا الحادث قد اتخذ وجها آخر .. وإذا الحادث قد انفجرت خلفه أشياء لم تكن بادية للعين العابرة .. إن يد الفنان كيد الساحر تلمس كرة البلور كما هى ، ولكنك ترى فيها وتقرأ مناظر وأشياء لم تكن فيها من قبل ..

(تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢)

المرأة والفن

عام ١٩٣٨

إنى — إذ أتكلم عن الفن — لا يسعنى إلا أن أعترف مرغما أن المرأة هى روح الفن . ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن .. ما من فنان على هذه الأرض أبدع شيئا إلا فى ظل امرأة .. وهذا القول منى غريب .. ولأبادر بتوضيح قصدى ، حتى لا يقال إنى رجعت إلى فضيلة الحق ،

وأعنى الحق الذى تريده المرأة .. كلا .. إنى لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد حتى لا تشمت بى « هدى شعراوى » ..وكل ما فى المسألة أنى دائما أفرق بين المرأة كشىء يوحى بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا .. إن عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع مادمت أخشى منه .. إنها كالطبيعة . فى يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء .. وإنه لمن المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها .. وإن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش .. ومن يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يجد وصف تلك المجالس التى كانت تتصدرها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنيين ، ويقرأ تلك الأخبار عن الجوارى المثقفات والنساء الشريفات ، ممن كن ينظمن فى السر والعلن .. تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح .. ونقرأ عن « علية » أخت « هارون الرشيد » وما كان لها من ذوق فى فنون الشعر والغناء ، أثر فى كبار الفنانين والشعراء .. وإذا قيل إن مصر الحديثة لم تر بعد فنا ناضجا (مماثلا لفن الشعر فى العصور العربية الزاهرة) ومن ثم لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة ، فإن السبب هو أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح ما زالت فى مصر نادرة الوجود .. وأن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرس بعض همها لإيقاظ همم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية ، لهو اليوم الذى نقترب فيه من المدنية الحقيقية ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

فى الشعر

أستنجد الصبر فيكم وهو مغلوب
وأسأل النوم عنكم وهو مسلوب
وأبتغى عندكم قلبا سمحت به
وكيف يرجع شيء وهو موهوب
ما كنت أعلم ما مقدار وصلكم
حتى هجرت وبعض الهجر تأديب

(مهيار الديلمى)

* *

ظبى يتيه بوردة فى خده
خد عليه غلائل من ورده
ما كنت أحسب أن لى مستمتعا
فى قربه حتى بليت ببعده
لا شيء أحسن منه ليلة وصلنا
وقد اتخذت مخدة من خده
وفمى على فمه يسامر ريقه
ويدى تنزه من حدائق خلده

(أبو تمام)

* *

حبى نسيم الربيع
قادنى إلى الصحراء
لقد حمل إلى النسيم رائحته
وأخذ منى راحتى

لقد جثوت فى الطريق
الذى عفرته قدماها
فلم تدن منى
لقد ارتفعت تنهداتى
فأزعجت نوم الطيور
فلم تفتح عينيها
ولو إنى أمامها مت محترقا
لما أطفأت لهبى بأنفاس شفتيها
(حافظ الشيرازى)

* *

ليس الجمال بمئزر
فأعلم وإن رديت بردا
أن الجمال معادن
ومناقب أورثن مجدا
كم من أخ لى صالح
بوأته بيدى لحدا
ذهب الذين أحبهم
وبقيت مثل السيف فردا
(عمرو بن معديكرب)

* *

فى تطبيق الشريعة

إن البحث فى وجوب تطبيق الأحكام الشرعية يستلزم تتبع المسار الذى سلكته هذه الأحكام من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم . ومعرفة ما أزيل منها فى مجتمعنا الحاضر وما ترك باقيا حتى الآن . والنظر فى قانوننا المدنى الذى نطبقه ، لنستخرج ما يختلف مع روح الشريعة وما يتفق .. وكذلك قانوننا الجنائى والتجارى .. ماذا أهمل وماذا أخذ ؟ كل ذلك لابد فيه من إحصاء دقيق يوضع تحت نظرنا ، حتى يجرى الكلام فيه على أساس العلم اليقينى الذى كان يمارسه السلف الصالح فى عصور الإسلام الزاهرة .. ومن ذلك ما أورده بعض كبار المفسرين والعلماء عن منشأ عقوبة السرقة كما جاء ذكرها فى الآية الشريفة من سورة (المائدة) : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ . قال القرطبى فى تفسيره لأحكام القرآن عن منشأ هذه العقوبة ما نصه : « وقد قطع السارق فى الجاهلية ، وأول من حكم بقطعه فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، فأمر الله بقطعه فى الإسلام . فكان أول سارق قطعه رسول الله ﷺ فى الإسلام من الرجال الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بنى مخزوم . وقطع أبو بكر يد الرحل اليمنى الذى سرق العقد (عقد أسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقطع يده اليسرى) . وجاء عن الميراث فى تفسير القرطبى أيضا ما نصه : « واختلفت الروايات فى سبب نزول آية المواريث ، فروى الترمذى وأبو داود وابن ماجه والدارقطنى عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت : يا رسول الله إن سعدا هلك وترك بنتين وأخاه ، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد ، « وإنما تنكح النساء على أموالهن » فلم يجبها فى مجلسها ذلك . ثم جاءته فقالت : يا رسول الله ابنتا سعد .. فقال رسول الله ﷺ : ادع لى أخاه . فجاء : فقال له : ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقى » فنزلت آية المواريث .. كذلك نزلت الآية فى الزنا بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل

واحد منهما مائة جلدة ﴾ .. ولكن فى صحيح مسلم عن البراء بن عازب قال : « مر على النبى ﷺ يهودى محمما — أى طلى وجهه بالفحم — مجلودا فدعاهم وقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قالوا:نعم.. فدعا رجلا من علمائهم فقال له : نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا التشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقال رسول الله ﷺ :﴿ اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرجم ﴾ .. وجرى فى هذا كلام كثير عن الحكم الذى ينزل به القرآن وتأتى سنة الرسول بحكم آخر .. نخلص من هذا إلى أن الكثير من أحكام الله المتعلقة بشئون الناس ومجتمعهم إنما تنزل غالبا فى قضية طرحت، وفى واقعة وقعت. وعندئذ قد يجوز لنا النظر فى حالة وقوع الحادثة ، وطرح قضيتها يفكر فيها الناس ، ويعرضونها على النبى ، وفى حالة نزول الآية بالحل المؤيد أو المعدل لما رآه النبى أو طلب فيه الاستعانة بحكمة الله . إذا كان الأمر كذلك فمغزاه أن الله تعالى يترك لرسوله وللناس فى بعض الحالات فترة يفكرون فيها لأنفسهم من واقع ظروف واقعهم وحياتهم وما يصلح لهم قبل أن ينزل لهم الآية بالهداية .. فإرادة الله تعالى ، كما يمكن أن نستشفها من آياته الكريمة ، فيها التشجيع للناس على أن يفكروا ويختاروا لأنفسهم ما ينفعهم وأن يجتهدوا فى ذلك تبعا لعقولهم الحرة . وقد نهاهم الله تعالى عن اتباع عادات أسلافهم اتباعا أعمى بغير تفكير .. ويكون هنا المبرر والمنبع لاجتهاد المجتهدين بعد انقطاع الوحى السماوى ، على أن يكون الاجتهاد منصبا على المنفعة للناس .. ونحن نعيش اليوم فى عالم يتحرك بسرعة فى دوامات من ظروف متغيرة مما نشأت معه قضية كبيرة: هى قضية الملاءمة بين مقتضيات فقه الشريعة ومقتضيات هذا المجتمع المتحرك بظروفه الجديدة وما يلائمه من منفعة . وما كان النبى صلوات الله وسلامه عليه يرفض منفعة لمجتمعه ، حتى ولو جاءت كما رأينا من الجاهلية .. وقد قيل فى مسألة النخيل رأيه ، ورأى النبى عندما لم يأت بالنتيجة المطلوبة فقد ترك الأمر للناس يعالجون ذلك بطريقتهم قائلا لهم : « أنتم أدرى بشؤون دنياكم » . فما أحوج فقه الشريعة الإسلامية اليوم إلى مجتهدين من فضلاء علماء الدين والعقول المستنيرة من المؤمنين ممن بحثوا فى جوهر الدين وهدفه. وليس فقط فى مظهر الدين ولفظه ، وتبحروا وتعمقوا فى دارسة

مطالب المجتمع الجديد ولوازم معيشته وتقدمه، ليفسروا نصوص الدين تفسيرا يتمشى مع إرادة الله تعالى من صلاح دينه لكل زمان ومكان ، حتى زمان الإنسان الحديث بكل اكتشافاته التى هيأ لها الله تعالى إمكان الظهور لتنفع الناس وتمكث فى الأرض .. ولابد من العلم لهم .. ولا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ..

فى العقوبات والحدود

كان لى رأى ذكرته فى كتابى « التعادلية » فى طبعة عام ١٩٥٥ وهو الإبقاء على عقوبة الإعدام . لأنه لا شيء يعادل حياة الإنسان غير حياة الإنسان ، وكما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ولكم فى القصاص حياة .. ﴾ أما بقية الجرائم التى يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية (وهى التى نبعت من الثورة الفرنسية لأن قبلها كانت العقوبات جسدية) هى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس آخر : ليس بين الحرية والشر . بل بين الخير والشر . بمعنى أن من يرتكب فعلا يضر الغير يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير .. وعلى هذا يجب أن تلغى السجون ويقام بدلا منها مصانع وأدوات إنتاج .. كما إنى أفضل الحد الشرعى بالجلد .. فمصادرة الحرية فى عصرنا هذا لم تعد عقوبة رادعة . وخاصة بعد المطالبة بتحسين السجون لتصبح حجراتها مثل حجرات الفنادق ، مزودة بوسائل الراحة .. فالأسرع والأردع عقوبة الجلد العلنى إذا نفذ فى الكبير والصغير على السواء .. ولا عبرة لما يقال أن فى الجلد إهدارا للكرامة الإنسانية ، فالتعذيب البدنى يمارس اليوم سرا فى المعتقلات بأشد وأفظع من الجلد الشرعى !

فى الحضارة والسلام

عام ١٩٤١

كانت أشد صدمة هزت نفسى فى السنوات القلائل التى تلت الحرب العالمية الأولى هى اهتزاز إيمانى فى التقدم الإنسانى ! لقد كنت أتابع وقتذاك آمال الساسة والكتاب والمفكرين فى السلام .. وأطالع آراء ماركس وتلاميذه فى الدولية واللاعسكرية التى تخلصنا من الاحتلال الإنجليزى .. كما كنت غارقا أيضا فى تلك الأحلام التى نسجها لنا هداة البشر وقادته الروحيون .. بأن الأوان قد آن عقب تلك الحرب المروعة لزوال الحواجز بين الأمم .. واتجاه البشرية أخيرا إلى تحقيق ذلك المجتمع الإنسانى الأعلى الذى يجعل من سكان هذا الكوكب إخوة أحرارا . لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردعت البشر ..لكن واأسفاه!.. فوجئت بما هالنى .. لقد ارتدت البشرية بغتة إلى الوراء ، وأن من كنا نحسبه إنسانا متحضرا قد عاد يصيح صيحات الغابة .. وخفت صوت القائلين بالدولية واللاعسكرية وارتفع صوت الناعقين بحق الأقوى فى سجن الآخرين .. صوت « هتلر » .. وما أصدق قول المفكر الألمانى « كيسرلنج » : « ما الإنسان إلا مخلوق تتركز فيه قوى روحية وقوى أرضية . جوهره العميق ذلك الذى قد يعد خالدا هو روح خالص . ولكن هنالك حقيقة تسترعى النظر ، هى أنه منذ ليل الأزمان والأديان ما برحت تمضى على اتباع تعاليم الروح .. فهل صادفت غير نجاح قليل . بينما كانت نوازع الأرض والدم تقبل أيسر القبول فى شىء من الخضوع الطبيعى .. هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين فى المائة من المخلوق البشرى تتألف من العناصر الأرضية التى تدخل فى نطاق العالم الحيوانى والنباتى .. » ما أقسى هذا الكلام على من يؤمن بالتقدم الإنسانى . ينبغى مع الأسف أن نتوقع إذن فى كل حين ثورة هذه الثمانين فى المائة على العشرين الباقية .. تتمثل لذهنى أيضا صورة رسمها المفكر الأمريكى « جيمس روبنسون » : فقد افترض أن حياة

البشرية (وهى التى تقدر أحيانا بخمسمائة ألف سنة) وللتبسيط جعلها خمسين عاما فقط فماذا وجد ؟ وجد أن تسعا وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية فى حياة الصيد الأولى .. أما السنة الأخيرة فقد كان ينبغى أن يمضى منها أيضا ستة شهور قبل أن تخترع الكتابة . ثم ثلاثة شهور أخرى للوصول بالأدب والفن والفلسفة إلى قممها . ولم يتطلب ظهور الطباعة غير ليلة واحدة ، وآلة البخار غير أسبوع ، ويومان أو ثلاثة لتخوض البواخر فى عرض البحار .. ولم يبق غير يوم واحد لاكتشاف الكهرباء .. وأخيرا لم تبق غير ساعات لاستخدام أحدث المخترعات ، لإثارة حروب عظمى .. ولأتم قول هذا العالم الأمريكى أقول : حروب عظمى قديرة على تدمير الإنسانية وإعادتها من جديد إلى حيث كانت منذ عام (إلى حياة الصيد الأولى) .

ولنستمع كذلك هنا إلى قول « كيسرلنج » : « إن الخط البارز والمظهر الحاضر هو الاقتصاد » أى « الغذاء » أى مطالب الأرض والدم .. أى أن كل شىء اليوم خاضع للشطر « غير الروحى » للكائن البشرى .

على أن الذى هالنى هو ذلك الأثر الذى أحدثه طغيان القوى الأرضية فى بعض رجال الروح والفكر أنفسهم .. عند ذلك بادرت بنشر ذلك النداء إلى رجال الفكر أقول فيه : « لئن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهى تسحق الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين المتنابذين ، فإن تدبر الدمار المسلط على شئون الفكر والروح كفيل بأن يوحد جهود رجال الفكر ، وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة أسهم أسلافهم فى وضع أحجارها الأولى ..

(سلطان الظلام ١٩٤١)

دين متين

عام ١٩٤١

حدث فى الأسبوع الماضى أمر أحب أن أسجله هنا : هو قيام القيامة فى الجامعة ضد كتابين قيمين ، لأنه قد ورد فيهما ما فهم على أنه طعن فى الإسلام .. ولا أريد أن أنظر إلى الأمر من ناحية التفكير الحر ، ولا من حيث تأثير هذا الموقف فى الحياة العقلية للجامعة لبلد متحضر .. لكنى أريد أن أبحث المسألة من جهة الدين نفسه .. وهنا يبدو لى العجب : لماذا كل هذا الفزع كلما وقع بصرنا على عبارة تمس الإسلام ؟ إن الكتب التى عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر فى أوروبا دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية .. ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات .. كذلك نستطيع أن نقول فى الإسلام .. إن هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرنا وثبت لأحداث الزمان ، وشاهد دولا تدول وعروشا تزول، ولا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف أو عبارات تقال ..إن هذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق .. كذلك يدهشنى أن ينشأ هذا الفزع فى جامعة عصرية ، يؤمها شباب انغرست فى قلبه العقيدة الحارة ، فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية .. إنى أعتقد دائما أن صحة العقل وصحة العقيدة كصحة الجسم .. لابد لهما من الهواء الطلق لاكتساب المناعة .. وأن حبس العقيدة والعقل فى قفص من الزجاج ، خوفا عليهما من خطرات النسيم معناه إنشاؤهما على بنية عليلة وكيان سقيم ..

(من البرج العاجى ١٩٤١)

الزوجة الرحيمة

عام ١٩٤٥

ذكرنى حمارى ذات ليلة بعهد اشتغالى بالقضاء . وطلب إلى أن أتصور جلسة قضائية فى محكمة ترأسها امرأة ، لما يتوهمه من رأيى فى المرأة . وتركته آخر الليل وذهبت إلى فراشى ونمت نوما عميقا .. وحلمت . ورأيت فى الحلم أنى رجل متزوج ! يا للكارثة .. ومتزوج بمن ؟ بسيدة تشتغل بوظيفة فى القضاء .. إنها قاضية فى محكمة مصر الأهلية .. ودقت فى الحلم الساعة الثانية ، وشعرت بالجوع . والسيدة حرمى لم تعد إلى المنزل بعد .. ولكن ماذا تصنع زوجتى فى المحكمة حتى الآن ؟ ودفعنى حب الاستطلاع إلى الذهاب إلى المحكمة ، وسألت عن الست فقيل لى إنها فى الجلسة فهى منتدبة قاضية إحالة . وتنظر الآن فى جناية قتل . فدخلت قاعة الجلسة وجلست بين جموع المشاهدين . فشاهدت الآتى : زوجتى المصونة والجوهرة المكنونة ، متصدرة المنصة ، ولم تنس أن تمر مر الكرام على وجهها بقليل من « البودرة » ولا أن تخط على فمها خطا أحمر . فالمرأة هى دائما المرأة .. وكانت لابسة رداء أسود . ولكنها حلت بعض أزراره عمدا فكشف من تحته عن ثوبها « الكريب دى شين » الوردى الذى تقاضتنى ثمن تفصيله منذ أيام .. وكان دفاع المحامى سيبدأ . فقد أبصرت القاضية الفاضلة مستغرقة كل الاستغراق فى الإصغاء إليه .. وكان ذلك المحامى شابا وسيما ممن يحسنون تلميع شعورهم وتنعيم وجوههم وتنغيم أصواتهم .. فوقف متجها بكل جوارحه نحو الست زوجتى .. وجعل هذا المفتون المأفون يتمايل تارة ويرتب بأنامله نظم شعره تارة أخرى ويقول : « يا حضرة الرئيسة .. هذه القضية قضية الحب . قضية القلب .. قضية متهمة تعسة لم ترتكب شيئا غير الإصغاء إلى صوت قلبها .. ومتى كان الاستماع إلى نداء القلب جريمة ؟. تتهم النيابة موكلتى بأنها قتلت زوجها بالسم لتفر مع حبيبها.. هذا صحيح.. وقد اعترفت فى محضر

التحقيق .. نعم .. لقد لجأت إلى القتل .. ولكن فلنسأل لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد خدعها أهلها وزوجوها بمن لم تحس معه لهيب ذلك الحب الجارف الذى قرأته فى القصص وشاهدته فى السينما .. يا للهول !.. أسيقدر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء ؟ الحب هذا حقها .. حق كل فتاة .. وكأن كل جريمة موكلتى أنها نالت هذا الحق .. فقد وجدت ضالتها فى صورة شاب جميل تبعها يوما فى الطريق وعرف رقم تليفونها ، فوالاها بعنايته وبثها هواه ولوعته ، وسألها أن تصغى إلى ترانيم الغرام ونداء الهيام ، وتترك بيت الزوجية وتتبعه إلى الفردوس المفقود والنعيم المنشود .. ماذا تصنع هذه الزوجة المسكينة ؟ من حسن حظها يا سيدتى الرئيسة أن القاضية لهذه المتهمة البائسة امرأة مثلها ، فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة .. ولم تنطق حضرة الرئيسة .. (زوجتى) ولكنها تنهدت .. واستمر المحامى الرشيق يقول : « كانت أمام موكلتى عقدة يجب حلها ، وعقبة فى سبيل هنائها يجب تذليلها : زوجها . إنها كانت تعلم أن هذه الزوج يعبدها عبادة .. وأنه إذا علم بفرارها انتحر لا محالة وقتل نفسه أشنع قتلة .. أتتركه يضع السكين فى فؤاده ؟.. كلا .. إنها زوجة طيبة القلب رقيقة الحاشية حية الضمير .. وكان واجبا عليها أن تؤدى واجبها المقدس نحو زوجها الأمين .. وقد فعلت . واختارت له ووفقت فى الاختيار نوع السم الذى لا يشعره بعذاب ولا ألم .. فقاطعته القاضية الكريمة زوجتى سائلة : من فضلك السم ده اسمه إيه ؟.. وهنا لم أطق صبرا . ولم أستطع احتمالا ولا انتظارا .. فنهضت مرتاعا وخرجت من قاعة الجلسة وأنا أقول : قسما بالله العظيم ما اتغدى فى بيتنا بعد اليوم .. وأعمانى الذعر ، فعثرت قدمى بعتبة باب الجلسة ، فهويت على الأرض .. وعندئذ فتحت عينى ، فإذا أنا متدحرج من فوق السرير على أرض الحجرة .. فقمت أفرك أجفانى وأقول : « الحمد لله أنى سليم معافى ولم أتزوج ! ولن أتزوج أبدا .. حتى إذا اختارنى ربى إلى جواره وأدخلنى الجنة ، فسوف أطلب إليه تعالى أن يكون بينى وبين الحور سور » ..

(حمارى قال لى ١٩٤٥)

فى الحـوار

أدهشنى رئيس المجمع اللغوى « أحمد لطفى السيد » عندما قال لى يومـا أن مسرحيتى « الأيدى الناعمة » عمل ممتاز ووصفها بالفرنسية : « شيديفر » . فى حين أنها عندى ليست أكثر من فكاهة عن « برنس » أمير صادرت أمواله ثورة ١٩٥٢ وتركت له قصره الفخم ولا عمل له يقتات منه . فأسكن معه دكتور آداب فى النحو اتضح أنه هو أيضا عاطل ، وأخيرا وجدا موظفا بالمعاش هو الحاج « عبد السلام » قبل أن يطعمهما مقابل سكنه معهما بالمجان مع أسرته . وهذا جزء من حوار المسرحية حول « النجوم » ربما كان هو سبب إعجاب لطفى السيد :

عبد السلام : (**لدكتور النحو**) أريد أن أسألك سؤالا دقيقا .. أنا لا أريد أن تنحاز إلى أحد الطرفين .. وقد وصفت لى مزايا كل منهما ..

الدكتور : وماذا قلت عن صفات البرنس ؟

عبد السلام : وما دخل البرنس هنا ؟

الدكتور : إليس هو إحداهما ؟

عبد السلام : أتمزح فى العلم يا دكتور .. أحدهما سيبويه والآخر الفراء ..

الدكتور : آه .. قصدك سيبويه والفراء ؟.. اليوم سأحدثك عن نفطويه ..

عبد السلام : ومن هو نفطويه ؟

الدكتور : هو الذى قال فيه ابن دريد :

لو أوحـى النحـو إلى نفطويـه
ما كان هذا العلـــــم يعـــــزى إليـــــه
أحرقـــــه الله بنصف اسمه
وصير البـــــاقى صياحـــــا عليـــــه

عبد السلام : شىء لطيف ! نفطويه .. أحرقه الله بنصف اسمه أى (نفط) .. وصير الباقى أى (ويه) صياحا عليه !..

الدكتور : هذا نوع يسمـى الاشتقـاق ، استخرجـه الإمـام أبـو هلال العسكرى ، وذكره فى آخر أنواع البديع من كتابـه المعـروف

بالصناعتين .

وعرفه بأن قال : هو أن يشتق المتكلم فى الاسم العلم معنى فى غرض يقصده من مدح أو هجاء .

عبد السلام : هذا حقا نوع بديع فى علم البديع .

الدكتور : عبارتك هذه تسمى فى هذا العلم « التطريز » . وهو نوع يبتدئ فيه المتكلم بذكر جمل غير منفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذى قرره وقدره فى تلك الجملة الأولى ..
كقول ابن الرومى : قرون فى رؤوس فى وجوه صلاب فى صلاب ..

عبد السلام : ولكن هذا شعر غير ..

الدكتور : غير لطيف .. أنا معك .. إليك مثلا آخر . ربما كان ألطف : كان الكأس فى يدها وفيها عقيق فى عقيق فى عقيق ..

عبد السلام : حقا .. هذا شعر لطيف .. يعنى أن الكأس ويدها وفمها عقيق فى عقيق فى عقيق ..
آه .. ذكرتنى بأيام الشباب !.

الدكتور : أيام شبابك يا عمى الحاج !.. زماننا غير زمانكم .. لدينا مشكلات كالصخور .. هل تنبت تحت الصخور بذور ..

عبد السلام : إنك تتكلم بالألغاز ؟!...

الدكتور : على ذكر الألغاز .. فى علم اللغة .. أقصد علم البديع نوع يسمى المحاجاة والتعمية .. وهو أن يأتى المتكلم بعدة ألفاظ متشتركة من غير ذكر الموصوف ، ويأتى بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه كما قال علماء هذا الفن .. وإليك قول أحد الشعراء فى وصف كوز :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب

عبد السلام : شيء ظريف !.

الدكتور : أظرف من ذلك ما قيل فى وصف التعلم .. افرض أصبعى قلما (**يمثل بأصبعه حركة الكتابة فى انحناء القلم ، وفى نثر الحبر من طرفه ، وفى حركة بريه**) :

وذى خضوع راكع ساجد
ودمعة من جفنه جارى
مواظب الخمس لأوقاتها
منقطع فى خدمة البارى

عبد السلام : (**يضحك وهو يمثل بأصبعه برى القلم**) فى خدمة البارى !.. حقا ظريف ! أنت بحر فى العلم يا دكتور !..

(المسرح المنوع ١٩٥٤)

فى الشعر

حب السلامة يثنى عزم صاحبه
عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل
أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
عادة النصل أن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا فى يدى بطل
ما كنت أوثر أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل

وإن علانى من دونى فلا عجب
لى أسوة بانحطـــاط الشمس عن زحـــل

(الطغرائى)

* *

قالـــوا كبرت عن الصبـــا
وقطـــعت تلك الناحيـــة
فدع الصبـــا لرجالـــه
واخلـــع ثيـــاب العاريـــة
ونعـــم كبرت وإنما
تلك الشمائـــل باقيـــة
وتفـــوح من عطفـــى
أنفـــاس الشبـــاب كما هيـــه
ويميـــل بى نحو الصبـــا
قلب رقيـــق الحاشيـــة
فيـــه من الطـــرب
القـــديم بقيـــة فى الزاويـــة

(البهاء زهير)

* *

أن يخدم القلـــم السيـــف الـــذى خضعت
له الرقـــاب ودانت خوفـــه الأمم
فالموت والموت لا شيء يعادلـــه
ما زال يتبـــع ما يجرى به القلـــم
بذا قضى الله فى الأقـــلام إذ بريت
أن السيـــوف لها مذ أرهـــفت خدم

(ابن الرومى)

* *

أف لرزق الكتبة
أف له ما أصعبه
يرتشف الرزق به
من شق تلك القصبة
يا قلم يرفع فى الطرس
لوجهى ذنبه
ما أعرف المسكين
إلا كاتبا ذا متربة

(كاتب مجهول)

معجزة الدين

عام ١٩٤٨

لماذا لا يظهر فى هذا العصر أنبياء ؟ سؤال يطرحه كثيرون ولا يتلقون عنه جوابا مقنعا .. لقد ظهر فى هذا العصر من يدعى شفاء الأمراض .. ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى .. ولكن قلما يظهر من يدعى النبوة .. لماذا ؟ السبب ربما هو أن المتنبىء يعلم أنه سوف يطالب بالإتيان بمعجزة .. وما هى المعجزة التى يستطيع أن تقنع الناس فى عصرنا الحاضر ؟!.. لقد كان المتنبئون فيما مضى لا يحتاجون إلى عناء كبير فى خداع العقول .. لأن أبسط الأشياء كان يكفى أن يعد فى نظر البسطاء عجيبة من العجائب .. بل إن بعض مدعى النبوة إذا أحرجوا كانوا يلجأون إلى الفكاهة للإفلات من أعواد المشانق وسيوف الجلادين .. والكتب القديمة مملوءة بنوادرهم .. فهذا رجل ادعى النبوة فى أيام « هارون الرشيد » فلما مثل بين يديه وسأله عن ادعائه أجاب بكل جرأة : « نعم .. أنا نبى كريم » .. فلما سأله الرشيد عن البرهان . قال : « سل عما شئت » .. وكان يقوم حول

« هارون الرشيد » مماليك مرد الوجوه ، فقال لمدعى النبوة : « أريد أن تجعل هؤلاء المماليك المرد بلحى » . فأطرق المتنبىء لحظة ثم رفع رأسه وقال : « كيف يحل لى أن أجعل هؤلاء المرد بلحى ، وأغير هذه الصورة الحسنة ؟ أنا أجعل لك أصحاب اللحى مردا فى لحظة واحدة ! » .. فضحك منه « الرشيد » وعفا عنه .. وتنبأ شخص فى عهد « المأمون » فطالبوه بمعجزة فقال : « أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب » .. فقالوا رضينا . فأخرج الرجل حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت .. فقالوا له : « هذه حيلة ، ولكن نعطيك من عندنا حصاة تجعلها تذوب » . فقال : وهل « فرعون » قال لموسى : دعنى أعطك عصا من عندى تجعلها ثعبانا ؟ » .. فضحك المأمون وتركه .. وإذا رجل آخر يأتى إليه ويدعى أنه « إبراهيم الخليل » فقال له المأمون : « إن إبراهيم أضرمت له نار وألقى فيها فصارت عليه بردا وسلاما ، ونحن نوقد لك نارا ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك » . فقال الرجل : « أريد واحدة أخف من هذه » .. فقال له المأمون : فمعجزة « موسى » إذن : ضرب بعصاه البحر فانفلق .. وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء .. فقال الرجل : « هذه أصعب من الأولى » فقال له المأمون : فمعجزات « عيسى » إذن : إحياء الموتى .. وهنا صاح الرجل : « قد وصلت » وأشار إلى القاضى « يحيى بن أكثم » الواقف بجوار المأمون وقال : «اضرب رقبة القاضى وأحييه لكم الساعة » فقال القاضى يحيى على الفور : « أنا أول من آمن بك وصدق .. اضرب عنق من لم يؤمن » .. فضحكوا منه .. وجاء فى زمن « المأمون » أيضا مدع للنبوة .. فقال له المأمون : « أريد منك بطيخا فى هذه الساعة » فقال المتنبىء : « أمهلنى ثلاثة أيام » فقال المأمون : « أريده الآن » .. فقال الرجل : « ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين .. إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ما يخرجه إلا فى ثلاثة أشهر ، أفلا تصبر أنت علىّ ثلاثة أيام ؟! » ...

تلك كانت مشكلة المتنبئين فى الماضى : المعجزة !.. أما اليوم فإنه لو قام رجل يدعى النبوة ، وقال للناس: انظروا !.. ثم مد يده إلى القمر فخلعه من موضعه فى

الفضاء ، وصره فى منديله كأنه بطيخة ، وسار به متنقلا فى أرجاء العالم ، فما الذى يحدث ؟.. يحدث أن يهب علماء الأرض لفحص هذه الظاهرة ، فيقول الفلكيون : إن هذا العمل الخارق قد دل على أن فكرتنا القديمة عن الأجرام السماوية كانت فكرة خاطئة ، وأن المراصد والمجاهر ما كانت تسحل وتظهر غير أوهامنا مكبرة مضخمة ، وأن القمر فى حقيقته ليس أكثر من فقاعة كبيرة من « الغاز » الخفيف ، استطاع أن يجذبها رجل فى تكوينه خاصية ينجذب إليها هذا النوع من الغازات بهذه السرعة الهائلة التى أدت إلى انكماش حجم القمر الأصلى فصار فى حجم البطيخة .. ويقول علماء الكيمياء : إن هذا الحدث يستلزم إعادء النظر فى تركيب المواد التى تتألف منها الأجسام السماوية ، فهى لا شك قابلة للتحول السريع من الصلابة إلى الرخاوة ومن الضخامة إلى الضآلة ، وما من شىء يمنع رجلا ذا طبيعة خاصة من أن يجرى هذا التحول . ويقول علماء النفس : إن الأمر لا علاقة له بالقمر ولا بغيره ، وأن هذا الرجل يملك قوة مغنطيسية وقدرة نفسية يستطيع بهما الإيحاء على نطاق واسع ، فهو منوم هائل للجماعات .. وهذه ظاهرة تكتشف فى بعض الأشخاص من حين إلى حين ، ولكن على نطاق ضيق ، وقدرة محدودة ، ولا شىء يمنع من ظهورها فى شخص على نحو أضخم .. وهكذا يمضى كل عالم وباحث فى كل فرع يفحص ويمحص ويفترض ويستنتج ، وتكثر المجادلات الفنية ، وتتلاطم النظريات العلمية .. ولكن ما من واحد من هؤلاء العلماء يأخذ نبوة هذا الرجل على سبيل الجد ، أو يحاول التسليم بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل وبين « الله » .. لم تعد المعجزة فى عصرنا الحاضر دليلا على النبوة .. فنحن فى عصر فيه المعجزات ، تتعاقب كل عام كأزياء السيدات . فمعجزة القنبلة الذرية التى ظهرت فى عام مضى أصبحت قديمة هذا العام .. لم يعد عالمنا الحاضر يطالب النبى بمعجزة .. ولو أتى بها لأدخلها معامل البحث والتحليل ، دون أن يعتبرها برهانا على أنه نبى مرسل من عند الله.. فلماذا إذن لا يظهر المتنبىء اليوم ، وقد أزيلت من طريقه العقبة الكبرى ؟. لا يظهر ، لأنه سيطالب بأصعب معجزة وهى « الشريعة » .. تلك الشريعة السماوية الإنسانية فى آن .. الشريعة التى تصلح للناس كافة .. فى آخرتهم ودنياهم .. ولا تكون تكرارا لما سبقها من شرائع .. ولابد أن يكون الله قد أراد ذلك فعلا .. وقد أراده فعلا فى صورة نبى من البشر

ومعجزته كتاب لغوى عقلى مما يقدره البشر .. ولذلك كان خاتم النبيين .. جاء به بشرا لإعلاء شأن البشرية .. وإظهار أن المعجزة العظمى عند نضج البشرية هى « الديانة » التى يفجرها الله بنوره لتضئ للبشر طريق التقدم ..

(من فن الأدب ١٩٤٨)

بعث الحضارة

عام ١٩٤٧

قالت العصا : يبدو أن الحضارة القائمة مقبلة على زوال .. فإن صنع القنبلة الذرية سيؤدى إلى استعمالها .. فنحن اليوم فى عالم ساسته كالأطفال .. ما أن تقع فى أيديهم علبة كبريت ، حتى يسارعوا إلى إشعال ما فيها ليتقاذفوا بها .. فإذا تمت الكارثة وقذفت أمريكا على روسيا ، وقذفت روسيا على أمريكا وأوروبا هذه القنابل الهائلة فمعنى ذلك تحطيم مراكز الحضارة الغربية .. فلو فرضنا أن مصر سلمت من شر هذا الصراع المبيد ، فهل ترى فى استطاعتها أن تبعث هذه الحضارة بوسائلها الحاضرة ؟ قلت : من المؤكد أن وسائلنا الحاضرة قاصرة .. ولا تكفى لبعث حضارة علمية ضخمة .. فنحن لنسى أن ما عندنا من آلات ومعامل ومصانع إنما يأتينا من الغرب .. فلو تصورنا أن الغرب قد أبادته الحرب ، فإن علينا نحن أن نصنع كل شيء دون أى عون من الخارج .. وكم من الأعوام يلزمنا لنستطيع ذلك ؟ أكبر الظن أننا سوف نحتاج إلى ما لا يقل عن مائتين من الأعوام .. قالت العصا : ولكن هذه الحضارة التى سننتجها نحن بعد كل هذه الأعوام قد لا تكون هى بالذات تلك الحضارة المندثرة .. قلت : أرجو ذلك .. إنى أتمنى لبلادنا حضارة روحية إلى جانب الحضارة العلمية .. إن بلادنا إن فعلت ذلك تكون .. بكل بساطة ، قد بعثت فى هذا العالم مرة أخرى فى

ثوب جديد حضارتها الأولى ومجدها القديم ..

(عصا الحكيم ١٩٤٧)

المرأة ومواهبها

عام ١٩٤٢

ما تلك اليد التى وضعت على عينى فلم أر أدب المرأة ؟. من الإسراف فى القول أن أزعم أنى لم أقرأ فى الصغر شعر الخنساء ، أو لم أعجب بعنان جارية الناطفى ، كما أن مكتبتى لا تخلو من مؤلفات شهيرات النساء فى أزهى العصور .. ولكن ميولى قامت منذ الصغر على عمادين : النزعة الفلسفية والتركيز فى الأداء .. ولهذا اتجهت إلى المؤلفات الجافة المتصلة بالفلسفة أو العلم أو المحتوية على مادة فكرية خالصة ، ثم القصص التمثيلى وهو المظهر الإنشائى الذى وجدته مبنيا على « التركيز » . أما « الشعر » وهو فن تركيز فقد كرهنى فيه سوء اختيار النماذج التى قام بها رجال تعليم يهملون « الذوق الفنى » .. هذان النوعان بالذات : التفكير والتركيز لم أجد للمرأة فيهما أثرا بارزا .. فالمرأة استطاعت أن تكون ملكة وحاكمة وسياسية ومغنية وراقصة وعازفة .. كل شىء قد برزت فيه وساوت فيه الرجل .. نعم كل شىء استطاعته المرأة خلا شيئين : أن تكون « فيلسوفة » ، وأن تكون « مؤلفة تمثيلية » .. أترى « التفكير » و « التركيز » صفتين ناقصتين عند المرأة ؟ أما « الرواية » فالمرأة توشك أن ترفع عليها علم السيادة .. فالمرأة تمسك « بالقلم » لتصنع قصة روائية كما تمسك « بالإبرة » لتصنع ثوبا من « التريكو » . فالقصة النسوية بما فيها من تفاصيل لشئون الحياة اليومية ومن إسهاب لتفاهات الحياة المنزلية ، ومن وصف وتحليل للعواطف والإحساسات الداخلية ، ومن بسط وتجميل لكافة المشاعر الإنسانية .. كل هذا ليس فى حقيقة الأمر سوى نوع من « شغل الإبرة » .. !

(تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢)

أثر المرأة فى أدبائنا

عام ١٩٤٢

هل فى مقدور مؤرخ أن يدرس أثر المرأة فى أدبائنا المعاصرين ؟ الويل للمؤرخ الذى يفعل ذلك !.. إنه لن يستطيع فى سهولة أن ينفذ إلى حياة أدبائنا الخاصة .. فهم ما زالوا فى حالة حجاب .. فنحن فى موقف غريب !.. إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأديب .. ما زال أدبنا تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة .. أما أدب الهواء الطلق فحظنا منه قليل لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل .. لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل .. ومع ذلك فإن هذا القليل يكفينا فى الوقت الحاضر .. إن من بين أدبائنا المعاصرين من خرج سافرا من الحجرة المغلقة : فهذا « طه حسين » قد أعلن فى كتاب له ذلك الإهداء الجميل : « إلى زوجتى التى جعل الله لى منها نورا بعد ظلمة وأنسا بعد وحشة .. » . وهذا الدكتور « هيكل » قد تحدث عن سيدة أوروبية قابلها فى الخارج فما غادرته حتى استقر فى نفسه العزم على كتابة قصة « زينب » . ثم يأتى « العقاد » بقصة « سارة » . ويجىء « المازنى » فصور نساء كثيرات و لم يحدد واحدة بالذات .. أما « الزيات » فقد ذكر ملهمته التى عرفها فى باريس عام ١٩٢٥ « الآنسة فرناند » .. ثم « زكى مبارك » وكتابه « ليلى المريضة فى العراق » . وهنالك بعد ذلك حالة أدباء أثرت فى تكوين ثقافتهم نساء فضليات ،دون أن يجرى على أقلامهم وصف لامرأة .. من بين هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق .. ومنهم أيضا « أحمد أمين » وقصته عجيبة .. فإنى أسأل نفسى : كيف استطاع هذا الباحث الجاد فى تاريخ العقلية الإسلامية أن يكون أديبا تنم كتاباته أحيانا عن فهم للقلب والعواطف ؟ فتحريت منه فكشف لى الأمر عن حقيقة أدهشتنى .. نعم هو أيضا قد أثرت فى حياته امرأة . استغفر الله ! بل امرأتان هما سيدتان إنجليزيتان : إحداهما فى ذهنه وتفكيره بثقافتها

الواسعة ، والثانية فى قلبه ومشاعره بجمالها ونبلها !... وأخيرا أقول إن المرأة التى أثرت فى عمل أدبائنا المعاصرين فى أغلب الأحوال امرأة أوروبية : فرنسية وإنجليزية .. ولنا أن نتساءل : أين المرأة المصرية ؟ مشغولة أين ؟ وبماذا عن صنع العقول . وقيادة القلوب . واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير ؟!...

(تحت المصباح الأخضر)

صبـــرا ســـاصمت

سألزم الصمت. وبه أغلق باب أحاديث الثلاثاء . فقد بدأته بالله تعالى فقالوا ضلال . وعدت إلى نفسى فلم يكن عندى غير ذكريات .. ثم اتجهت إلى قرائى فجاءنى من بينهم صوت صادق لكاتب كريم يقول لى بحب وتقدير : لا حاجة بى إلى القول إن توفيق الحكيم قرأنا له ونحن صغار .. فهو ليس أستاذا لجيلنا ، ولكنه أستاذ لجيل الأساتذة الذى تعلمنا على يديه .. فلا مفر من القول إننى حزنت طوال الأيام التى مضت من الحال الذى وصل إليه .. والمشكلة أصلا عندنا فى هذا الجزء من العالم أن الكاتب يعرف أمرا واحدا فقط وهو أن يكتب فقط.. أى أنه لا يعرف اختيار الصمت .. لست فى حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على حزنى الخاص وأنا أقول هذا مضطرا . ولكن أكتبه لكى أطلب من توفيق الحكيم إما أن يصمت أو أن يتكلم عندما يكون لديه ما يقوله فقط » .. وها أنذا قريبا ، بإذن الله تعالى أنفذ هذه النصيحة الصادقة من محب صادق .. وأطرح هذا القلم ومتاعبه .. وأبحث عن شىء آخر أشغل وقتى به .. ومن سوء حظى أنى لم أهتم بلعبة « الطاولة » ، وهى التى اعتاد الشيوخ وأصحاب المعاشات أن يشغلوا فراغهم بها على المقاهى .. وبهذه المناسبة أنصح المسنين أن يفكروا فى مستقبلهم هذا غير السعيد وأن يستعدوا له بهواية تشغل فراغهم إلى أن يحين موعد الرحيل الأخير .. والحمد لله أن جاءتنى نصيحة من محب آخر يقيم فى البلد الشقيق « السودان » .. حملها إلى نخبة من الشباب السودانى المثقف ، وقد علموا أن نومى الآن قليل ، وأنى أستيقظ فى الثالثة صباحا ولا أدرى ما أصنع حتى يطلع الفجر على الأقل .. خصوصا الآن وقد استبعدت فكرة الكتابة .. وكانت النصيحة من شقيقنا السودانى هى أن ألجأ إلى صلاة الثلث الأخير من الليل .. وهى سنة لا يتبعها الكثيرون من المؤمنين .. وقد بدأت القيام بها .. ولكن لأن الساقين عندى تحت العلاج فإنى لا أحسن السجود .. وإذا سجدت فإنى لا أستطيع النهوض .. وطبيبى

المؤمن الدكتور أحمد عبد العزيز إسماعيل إذا علم بذلك سوف يؤكد أن هذه الصلاة مفيدة للعلاج .. ولكنى تذكرت أن الدين يسر لا عسر .. وأن فى إمكانى الصلاة وأنا جالس ، وأن الوضوء فى برد الليل إذا أضرنى فإنى أستطيع أن ألجأ إلى التيمم .. والله أسأل أن يهدينى هو إلى الصواب ولا يلجئنى إلى استشارة رجال الدين ، ولن أجد عندهم إلا التشدد والتخويف بجهنم ونحن على أبواب الصيف والعياذ بـالله !.. وحسبى رسول الله ﷺ إذ قال « خير دينكم أيسره » قالها ثلاثا ..

مخاوف السودان

زوارى من الشباب المتقف السودانى قد أشعرونى بكل رفق وأدب ، مع ترحيبهم بالتكامل بين البلدين الشقيقين ، أن فتح الباب قد يسمح بتسرب بعض مظاهر ما نشكو منه نحن أنفسنا ، وخاصة فى محيط مثقفينا ، من التدهور الملحوظ فى إدراكهم وفى حياتنا الاجتماعية والعقلية والعقائدية .. فهم فى السودان ما زالوا محتفظين بقدر كبير من حسن الفهم والطهارة والصدق والصراحة ووضوح النظرة إلى مراحل تاريخ مصر الذى قامت فيه النهضات وحركات التجديد .. فإذا هم أمام مصر أخرى تسود فيها الجهالة والغوغائية والسطحية والمادية (الدولارية والدينارية والأرنبية) يجرى خلفها الكبار والصغار داخل البلاد وخارجها ، والأمية الهجائية والفكرية .. والدروس الخصوصية والمدارس والجامعات وعلومها التلقينية الببغاوية ، وتقديس المجاميع الدراسية بغير تنمية فكرية .. وأماكن لهو من علنية وسرية .. وأحزاب سياسية تشنيعية .. أو ببرامج تنشئها قرارات حكومية ، وفنون تهريجية يطلق أصحابها على أنفسهم وصف رجال الفكر .. ورجال فكر بنصف فكر . لا يقرأون . وإذا قرأوا لا يفهمون . ومنهم من يريد للكاتب أن يصمت .. ومنهم من يرى رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وأمثالهم مجرد أناس سافروا وانبهروا بحضارة الغرب ، ويريدون منهم أن يضعوا على أعينهم غشاوة حتى لا يروا التقدم وينبهروا به .. ونسوا أن الحضارة العربية التى كانت فى عهد الرشيد والمأمون ازدهرت بالنظر إلى حضارات الأمم المجاورة ،

وشجعوا حركات الترجمة لمؤلفات الهند والفرس والإغريق . وأنكروا حديث نبينا ﷺ : « اطلبو العلم ولو فى الصين » وقالوا عنه إنه حديث موضوع .. ما الذى حدث فى مصر ؟ ليس فيها شخص واحد : لا فى الدولة ، ولا فى الأحزاب ولا فى الجامعة ولا حتى فى الأزهر يستطيع أن يقوم بنهضة مثل النهضات التى قامت فى تاريخ مصر .. كلهم تجمدوا فى الحركة والفكر .. لأنهم كلهم من مبدأ « وأنا مالى » ويجرون فى مجرى واحد : الجيب ! ما من واحد منهم يرى شيئا آخر .. أما التكامل مع السودان فقد قلت : لا تخشوا منه شيئا .. لأنه تكامل اقتصادى .. غذائى فى المقام الأول .. مكانه البطن أيضا . لأنه المكان الوحيد الذى تعرفه الآن مصر كلها .. مصر دولة وشعبا .. مكان واحد يشغل تفكير وعمل كل أهل مصر من حكام ومحكومين : ليس هذا المكان : البطن .. فاطمأن زوارى من شباب السودان المثقف .. لأن خوفهم هو من تسرب أفكارنا . فقلت لهم : اطمئنوا .. لم يعد لدينا أفكار ولا مفكرون .. لأن الفكر والمفكرين أشياء لا تنبت إلا فى جو الحرية .. والحرية تقوم فى ديموقراطية حقيقية .. وهى توجد عندما تسمع عندنا عبارة « تكلم ونحن نرد عليك ، اكتب ونحن نكتب » .. وتختفى صيحة « اسكت .. اصمت .. اخرس » .. وهذا ليس موجودا عندنا الآن .. فأشاروا إلى الحركات الإرهابية فقلت إنها نتيجة الظلام .. فإذا ظهر الوضوح بطلوع نهار الآراء الحرة ، وطبق ما جاء به الإسلام الحق عن منع العنف والإرهاب وقوله تعالى ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .. فهذا الجدل وحده يلغى المبرر لوجود الإرهاب ، فإن وضع كمامة على الفم يؤدى إلى التحرك باليد .. وبهذه المناسبة فقد كنت دائما أنصح بعودة « حزب الوفد » وجريدته .. لأن له مبادئ ثابتة من ثورة ١٩١٩ — لأن كل ثورات مصر ونهضاتها يجب أن تكون ممثلة فى تاريخ مصر .. أما عمليات البتر التى قطعت أوصال تاريخنا فقد جعلت من مصر مجرد أشلاء .. وأملى فيكم أنتم يا شباب السودان بطهارتكم ، وأنتم تتأملون حالنا المؤسف — عن بعد — أن تساعدونا أنتم فى تغيير ما بأنفسنا ..

ما هي القضية

ومما عجبت له من أمر زوارى السودانيين أنهم فهموا ـــ وهم يتابعون المناقشة التي قامت هنا بيني وبين رجال الدين ـــ أنها قضية فكرية . واهتموا بها على هذا الأساس ، وعجبوا لأن أهل الفكر فى مصر لم يفهموا ذلك .. فقلت لهم مبسطا : وما هى القضية ؟ إنى كدت أنسى ذلك . لأنى أعيش فى جو الظلام الفكرى وعدم المبالاة ، واهتمام الأقلام هنا بالكتابة الروتينية الصحفية والمسلسلات التليفزيونية .. أما أهل الفكر فى مصر فدلونى عليهم من فضلكم .. لقد كان أولئك الذين تتكلمون عنهم موجودين فعلا قديما ، يقرؤون ويفهمون ويثيرون القضايا .. أما اليوم فلا يوجد فى مصر رجال فكر ولا قضايا فكر .. أجابوا : وما الذى جاء بنا إليك اليوم ؟ أليست قضية فكرية سمعنا ضجتها فى السودان ؟ وهى أن رجل فكر مثلك أراد أن يحادث الله بفكره وأسلوبه ، فثار عليه رجال الدين واتهموه بالضلال والخروج على الدين ، وأغروا به الغوغاء .. وتساءل الناس فى مصر وخارجها : هل توفيق الحكيم خرج حقا على الدين وتطاول على مقام الله تعالى ؟.. وحتى الآن لم يبت فى القضية .. ولم يعرف الناس هل التهمة صحيحة أو هى من المبالغات المقصود بها التشويه أو التخويف أو طرد مفكر من الاقتراب من مجال اعتبروه من اختصاصهم وحدهم ؟.. فكان رد الصحافة عليهم أن هذا موضوع يخص هذا الكاتب وحده وأنه سكت وتنازل عنه .. ويظهر أنه رضى بالهزيمة .. فعجب السودانيون وقالوا لهم : هذه ليست قضيته وحده وهزيمته فيها هى هزيمة الفكر كله.. وإذا سكت هو فى سنه هذه فعليكم أنتم أن تواصلوا المسيرة وأن تعرفوا النتيجة : هل هى فى سكوت الأديب والمفكر وابتعاده عن هذا الموضوع الشائك وتركه لرجال الدين وحدهم وفى حراستهم ، دون مناقشة ، أو أن يلفتوا نظره فقط بالحسنى إلى ما وجدوا فيه مساسا بالعقيدة ، دون اتهامه بالضلال ليهاجمه فى سمعته من قرأ ومن لم يقرأ من الدهماء ؟!.. وكيف يمنع مفكر من أن يفكر فى الدين .. وجاء فى الإسلام قوله صلوات الله عليه :.. « لا عبادة كتفكر » و « تفكر ساعة خير من

عبادة سنة » .. ولم يخص بالتفكير رجال الدين وحدهم ؟.. وما يخشى منه هو أن يصبح ما يجول فى ذهن البعض من أن رجال الدين يريدون أن يضخموا نفوذهم إلى أن يصبح سلطة تهدد إرادة الدولة .. وهذا أيضا ما لم يكن ليخفى على فطنة السودانيين ، وما يمكن أن يكون قد أثار قلقهم ..

الحكم والفكر

أريد أن أدخل الاطمئنان إلى قلوب أشقائنا السودانيين ، حتى لا ينزعجوا طويلا ، وهم يرون الأقلام والأفكار فى مصر بهذا التبلد والتجمد واللامبالاة والانصراف إلى التفكير فى الأجور والمرتبات .. فلنتذكر قضية من قضايا الحكم والفكر فى مصر .. كان من أطرافها الملك والإنجليز والأزهر والمفكرون .. تلك هى قضية كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق .. نشأت هذه القضية بعد إلغاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال .. فقد طمع ملوك العرب الخاضعين لإنجلترا فى أن يرثوا هم هذه الخلافة ويقيموها عندهم .. ومن بين هؤلاء الملوك ملك مصر « أحمد فؤاد » الذى بذل الجهود والأموال فى هذا السبيل ، وأصدر مجلة اسمها « الخلافة » جعل العالم الإسلامى الشهير « رشيد رضا » صاحب المنار هو المشرف عليها .. فى هذا الوقت ١٩٢٥ أصدر « على عبد الرازق » كتابه « الإسلام وأصول الحكم » يعارض فيه فكرة الخلافة ، لأنها إذا قامت سوف تكون خلافة خاضعة للإنجليز .. فكان كتابه إنكارا للخلافة من أصلها .. وأنها ليست من أصل الإسلام .. وغضب لذلك بالطبع الملك فؤاد والإنجليز وعلماء الأزهر .. واتصل الملك بهيئة كبار العلماء فى الأزهر وحرضهم على محاكمة الشيخ على عبد الرازق وهو عالم من علماء الأزهر وقاض بالمحاكم الشرعية المصرية .. واجتمعت هيئة كبار العلماء ورئيسها وقتئذ « الشيخ أبو الفضل الجيزاوى » .. ودخل عليهم الشيخ على عبد الرازق قائلا : « السلام عليكم » فلم يردوا عليه السلام .. بل أمره شيخ الأزهر بالجلوس فجلس .. وقال له شيخ الأزهر وهو يشير إلى كتابه : « إن هذا الكتاب كله ضلال وخطأ » .

ورد على عبد الرازق بقوله : « إن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع دينى خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير .. وإن الأغراض الدنيوية قد جعل الله الناس أحرارا فى تدبيرها ، بدليل قول الرسول ﷺ « أنتم أدرى بأمور دنياكم » ثم قال : إنه لا شك فى أن القضاء بمعنى الحكم فى المنازعات وفضها كان موجودا فى زمن النبى ، ولكن جعل القضاء وظيفة معينة من وظائف الحكم ، واتخاذه مقاما ذا أنظمة معينة فذلك هو الذى نعتقد — كما قررنا فى صفحة ١٠٣ من الكتاب — أنه من الخطط السياسية الصرفة التى لا شأن للدين بها. فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل. وقد ذكر ابن حنبل فى أظهر رواياته أن القضاء ليس من فروض الكفايات.. ثم ذكر أنه قرر فى صفحة ٩٠ من كتابه : أن زعامة النبى ﷺ كانت زعامة دينية ، وأردنا بكونها دينيه أنها جاءته عن طريق الرسالة لا غير . فذلك صريح فى أن الزعامة الدينية معناها الزعامة التى تستند إلى الرسالة والوحى ، وتقابلها بهذا المعنى الزعامة اللادينية ، فهى التى لا تستند إلى وحى ولا رسالة . وبهذا لا تكون بعد النبى زعامة دينية بهذا المعنى .. وإنما توجد بعده زعامة مدنية أو سياسية ، وهى زعامة الحكومة والسلطان .. » وفى حديث للنبى صلوات الله عليه : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » .

وبهذا انتهى التحقيق مع الشيخ « على عبد الرازق » وقد حكم عليه بما يأتى : « حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين معنا من هيئة كبار العلماء ، بإخراج الشيخ « على عبد الرازق » أحد علماء الأزهر ، والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الشرعية ومؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » من زمرة العلماء » .. تلك باختصار قضية الخلافة والإسلام وأصول الحكم .

المهم عندى : لماذا بدل المحاكمة والعنف لا يؤخذ عند اختلاف الرأى بما قاله الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ . على أن ذلك الحكم ضد « الشيخ على عبد الرازق » ، وما أشيع من أنه صدر عن تيار الرجعية والتجمد ، قد ألغى وأعيدت العالمية إليه فى عهد شيخ الأزهر المعروف بأنه نصير حرية الرأى « الشيخ مصطفى المراغى » مع العلماء المستنيرين الذين أرادوا إنقاذ سمعة الأزهر الشريف من

نظام الحكم

فى تاريخ البشرية لم يقم نظام الحكم إلا على قوتين : قوة الجيش أو قوة الدين .. إلى أن جاءت العصور الحديثة فظهرت قوة ثالثة هى قوة الشعب .. وتتمثل هذه القوة الثالثة فيما سمى بالديموقراطية .. ومنذ ثورة ١٩١٩ عرفت مصر هذه القوة الثالثة، ومارست « الديموقراطية » بصفة رسمية وتأسست المجالس النيابية التى ينبع منها رجال الحكم .. طبقا للدستور الذى كان هو أمل الشعب المصرى حتى قبل ثورة ١٩١٩ .. وكان شباب المدارس العليا إذا تصادف مرور حاكم البلاد « الخديوى » يهتفون صائحين به « الدستور يا أفندينا » .. وبالطبع كان الدستور هو ما يقلق الحكام ، لأنه حق ينتزعه الشعب من سلطة الحاكم .. ولذلك كانت الحياة الدستورية بعد ثورة ١٩١٩ مما لا يرتاح لها الملك .. وكذلك المحتل الإنجليزى .. ولذلك لم تكن الديموقراطية فى مصر تسلم من تدخل وإفساد الملك والإنجليز .. حتى أصبحت الديموقراطية عندنا مصدرا للخصومات والمنازعات الحزبية والمطامع الشخصية للوصول إلى كراسى الحكم ، إلى حد لم أجد أنا فيها غير الأداة المعرقلة لكل تقدم فى البلاد .. ووقفت منها موقف الخصومة ، وصدر كتابى « شجرة الحكم » عام ١٩٣٨ ، وذكرت فيه أن النظام البرلمانى كما يطبق فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين .. وأن الأمل فى الشباب لإصلاح الفساد وإحداث « الثورة المباركة » بهذا الاسم والنص ، وجاءت ثورة ١٩٥٢ وسميت بهذا الاسم نفسه . ورحبت أنا بها بالطبع .. وألغت الدستور .. وصدم لذلك الكثيرون .. إلا أنا الذى قلت : لا تهمنى الدساتير .. المهم عندى الأشخاص المخلصون .. وجاء شباب الثورة فى أول الأمر بما أدهشنا بإخلاصه للوطن وسرعة إنجازاته .. وشيئا فشيئا وجدنا « الثورة المباركة » تتحول إلى نظام بوليسى دكتاتورى .. يعمل بأسلوب لا يقوم على أساس المناقشة والجدل .. بل الأوامر والقرارات العليا .. ولاحظت أن مصر بعد ثورة

١٩١٩ فى حضارتها وفكرها وفنها واقتصادها هى من صنع مصر .. أما بعد ثورة ١٩٥٢ فإن مصر هى من صنع الدولة .. ثم توالت فى مصر المغامرات السياسية والهزائم العسكرية والمواقف الانفعالية التى خسرت بها مصر الكثير .. مما جعلنى أتأمل ما حدث وأقول : إن مصر قد عرفت نظامين : النظام الديموقراطى على نحو ما ، (ومن عيوبه التى وقفت ضده من أجلها) عيوبه التى لمسناها ونقدناها : التطاحن الحزبى والجدل العقيم الذى يعرقل المشروعات النافعة ويبطىء تنفيذها .. ومن مزاياه شيء من حرية القول والعمل والرأى والوعى المستقل ، مع عدم المغامرات والانفعالات والاندفاعات الخطرة .. ثم جاء النظام المبنى على الحكم المطلق بإرادة فرد ، من مزاياه التنفيذ السريع لما يراه من مشروعات نافعة وقوانين ، ومن عيوبه القرارات المتعجلة أو المفاجئة المبنية على الانفعالات ، والمغامرات التى قد تورط الأمة فى ساعة واحدة وتوردها موارد الهلاك .. وهذا كتبته فى كتابى « عودة الوعى » .. ولكن عقلية الأمة كانت قد تشكلت بحكم غياب حرية المناقشة والجدل ، فأصبحت تتحرك بالإثارة والانفعال والشحن . والدولة اعتمدت على وسائل الإعلام وأتقنت طرق شحن الجماهير ، وإطلاقها فى الاتجاه الذى تريده الدولة مع أو ضد أى رأى أو كتاب أو شخص .. وهكذا لم أجد أحدا أو قلما يناقش أو يحلل .. بل وجدت الصياح والشتم من كل جانب .. فلقد تكونت فى العقلية المصرية عاهة أرجو أن لا تكون مستديمة : هى ضمور عضلة التفكير والتحليل وحل محلها عضلة لا تشعر بالحب أو الكره ، ولا ترى غير لونين « الأبيض والأسود » .. وبذلك ظهر نتيجة الشعور الواحد الانفعالى بالحب والكره موقف التعصب ثم الإرهاب والعنف .. وهنا خطر غياب المناقشة والتفكير والتحليل .. وهو ما يقتضى ظهور الحرية الحقيقية .. وبمعنى آخر إرساء قواعد « الديموقراطية الصحيحة » وليست المفتعلة أو المزيفة أو الناقصة ، أو التى تستخدم لأغراض دعائية ومظهرية .. الحل هو فى ديموقراطية حقيقية ، تطلب لمزاياها وأهمها الآن هو قدرتها على إبعاد الخطر المنتظر الماثل فى التعصب الأعمى والتجمد الفكرى الذى يصاحبه الانفعال المؤدى إلى العنف والإرهاب .. ثم النتيجة بعد ذلك هى عودة الديكتاتورية الرجعية ..

الديمقراطية

وهذا هو سبب ترحيبى بعودة الديموقراطية فى مقالى الذى نشرته بعنوان « تهنئة للديموقراطية » . جاء فيه : « إن قرار الموافقة على تأسيس حزب الوفد الجديد قد أحدث فى الشعب هزة فرح واستبشار .. لأن الشعب المصرى بفطرته الواعية النابعة من إدراك سليم صقلته خبرة تاريخ قديم وتجارب آلاف السنين ، قد عرف أن شيئا جديدا قد حدث . إنه عودة الروح إلى حياة نيابية ولدت من ثورة شعبية قامت منذ أكثر من ستين عاما على الرغم من سلطان ملكى واحتلال بريطانى .. وكانت إرادة الشعب هى التى تقرر . واختياره هو الذى يحقق . وصوته هو الذى يعلو على كل صوت .. عندئذ تفاءلت البلاد ، وأيقنت أن الديموقراطية الكاملة بكل أركانها سوف تصبح حقيقة واقعة .. فعلى الحزب الجديد القديم أن يعمل على دعم هذه الديموقراطية بإرساء تقاليدها السليمة بالمعايشة النزيهة مع الأحزاب الأخرى ، فلا يخاصمها فيما هو حق ، ولا يهادنها فيما هو باطل ، وأن يدرس مشكلات الشعب بعمق وخبرة ، وأن لا يعارض لمجرد المعارضة ، وألا يكون هدفه الوصول فقط إلى الكراسى بل ينشئ هو نفسه « حكومة ظل » تبحث الحلول كما لو كانت فى السلطة .. وأن يكون هدفه الأكبر هو النهضة بالبلاد فى كل مرافقها ونواحيها .. وأن يعمل جادا على إعادة بناء المواطن على أساس تأكيد شعوره بالوحدة الوطنية ، التى كانت من أهم إنجازات الوفد فى عهده الأول .. إذا استطاع حزب الوفد الجديد الذى كانت ولادته الأولى فى أحضان الحرية أن يسهم بسلوكه الديموقراطى الصحيح فى بناء المجتمع الحر الجديد ، فإنه سينشط الأحزاب الأخرى فى ميدان التنافس الشريف ، حيث يعمل الجميع ، كل بطريقته ووسائله على إنهاض البلاد من خمولها الفكرى ..

الخمول الفكرى

وهذا الخمول الفكرى « وخاصة السياسى » أشد أنواع الخمول خطرا .. لأنه ليس من النوع الهادئ الذى قد يدل عليه مظهره .. بل هو خمول الرماد الذى يخفى تحته نارا ، ويكفى أن يقترب منه نافخ دجال حتى يشعل منه نارا هوجاء لا تدرى ما ستحدثه من دمار .. وإذا كان لهذا الخمول الفكرى فكر فهو ما يمكن تسميته « الفكر الغوغائى » وهو نقيض « الفكر الديموقراطى » .. وهناك فرق كبير بينهما : فالفكر الغوغائى هبوب ترابى .. غبارى كريح الخماسين يملأ الجو ويعمى البصر ، ويحول دون فتح عيون التفكير .. فى حين أن « الفكر الديموقراطى » ريح صافية تسمح بالجدل والأخذ والرد وتنتج رأيا .. وإذا اشتدت الريح أحيانا وحدث تصادم فى الآراء فإن ذلك يكون كاحتكاك حجر بحجر ينتج ضوءا ينير جوانب المسألة .. أما ذلك الذى عندنا اليوم فهى رياح الخماسين الفكرية ، تهب فيمتلئ الجو بالغبار الذى يعمى البصر .. ولذلك كانت تحيتنا بعودة الأحزاب ومعها الوفد تمهيدا لديموقراطية صحيحة تسير بنا نحو التقدم والازدهار فى ظل وحدة وطنية عرفتها البلاد فى أزهى مراحل تاريخها .. ولكن مع الأسف .. سرعان ما تدخلت العناصر المغرضة والنوايا السيئة فأفسدت الجو ، وغيرت النفوس وأثارت الانفعالات ، فأطيح بذلك كله فى زمن قصير .. وعندنا مصيبة أخرى يجب أن نحسب لها الحساب .. مصيبة اسمها « الانفعال » .. هذا الانفعال هو من أسباب البلاء عند الزعماء !.. وفى تاريخنا الحديث أمثلة : فإذا بحثنا عن أسباب هزيمة ١٩٦٧ لوجدنا من بينها انفعالا نفسيا عند الزعيم .. كذلك أحداث الاعتقالات بالجملة وما أصاب حزب الوفد والبابا شنودة .. كل ذلك نتيجة نوبة انفعال أثاره فى نفس الزعيم أشخاص بكلام وتقارير دفعته إلى اتخاذ القرارات السريعة والمواقف الخطيرة .. وذلك لا يحدث إلا عندما يكون الزعيم هو وحده صاحب القرار ..

المستشار « الثلاجة »

ولذلك اسمحوا لى بتقديم اقتراح : أن يعين لكل زعيم من هذا القبيل مستشار : يسمى « المستشار الثلاجة » ، مهمته كلما رأى الزعيم قد تعرض لنوبة انفعال أن يبادر ويسعفه ، قبل أن يتخذ أى قرار ، بإدخاله « الثلاجة » لتبريد أعصابه .. ولم يصل تصورى بعد إلى وصف هذه الثلاجة ولا المستشار الذى يعين لها .. ولى فى هذا اللون من الانفعال السيئ تجربة شخصية : فقد كنت قد نشرت كتابا .. وكنا فى عصر النشاط الأدبى والفكرى : فما يصدر لأحد منا كتاب حتى يتناوله الأدباء والنقاد والزملاء بالتنويه .. ولذلك ما إن صدر كتابى حتى تناوله طه حسين بالثناء .. وأعجبنى مقاله وشكرته فى نفسى وعندئذ دخل مكتبى صديق بادرنى بقوله : هل قرأت مقال طه حسين عن كتابك ؟ ولم يتح لى الإجابة أو الحديث فى الأمر . وبادر يقول إن طه حسين خبيث وأن بين سطوره سموما خفية .. وكان الجو حارا والأعصاب متوترة فأثار انفعالى ، وأمسكت فى الحال بالقلم وأرسلت إلى طه حسين خطابا فظا ، ما كاد يقرؤه حتى صاح فيمن حوله : سبحان الله .. لقد نشرت مقالا عن الكتاب الذى صدر لتوفيق الحكيم ليس فيه غير الإعجاب ، فرد على يشتمنى ... وصارت قطيعة بيننا (مؤقتة) .. وعدت إلى مقاله أقرؤه مرة أخرى فى هدوء ، فلم أجد فيه ما يستحق غير الشكر .. كيف استطاع إذن هذا الصديق رحمة الله عليه أن يغير شعورى ويثيرنى ضده ؟!.. ورأيت بعدئذ أن مثل هذا يحدث كثيرا فى مجال السياسة ..

مـريم

وأخيرا .. قرأت فى سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .. صدق الله العظيم .. ثم قرأت فى القرطبى « ... فظاهر القرآن والأحاديث يقتضى أن مريم أفضل من جميع نساء

العالم ، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ، فإن الملائكة قد بلغتها الوحى عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ، فهى إذن نبية .. وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية » . وهذا حديث حسن .. وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء ، وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ فى درعها ودنا منها للنفخة ، فليس هذا لأحد من النساء ، ولذلك سماها الله فى تنزيله « صديقة » فقال : ﴿ وأمه صديقة ﴾ .. هذا نص ما جاء فى القرطبى .. وأنا الآن أكتب هذا لتعرف حفيدتى الصغيرة « مريم » مناقب من تسمت باسمها ، ولتخبرها أمها بنتى « زينب » ما يحمله هذا الاسم من فضائل ذكرها الله تعالى فى قرآنه الكريم بقوله سبحانه : ﴿ اصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

* * *

حـــديث الإفـــك

كانت « عائشة » زوج النبى صلوات الله عليه على فراش المرض فى مسكنها .. وإلى جوارها أمها « زينب أم رومان » .. فقالت لأمها : « يا أمى ! أتذكرين أنى كنت إذا اشتكيت رحمنى رسول الله ولطف بى ؟.. إنه لم يفعل ذلك بى فى شكواى هذه !.. . وحدث أن دخل النبى وخرج دون أن ينظر إلى عائشة .. فقالت : « أرأيت جفاءه لى ؟.. لقد جاء وانصرف ، دون أن يخاطبنى بكلام .. إنى أرى فى وجهه شيئا ما كنت أراه من قبل !.. » وكانت إلى جوارها امرأة هى « أم مسطح » قالت وكأنها تخاطب نفسها : « تعس مسطح » !.. فقالت لها عائشة : « لماذا تقولين ذلك له ؟.. بئس ما قلت لرجل من المهاجرين ، فقد شهد بدرا ... » فقالت أم مسطح : « أوَتجهلين ما يتحدث به الناس ؟ أنت وصفوان !.. ليلة عاد العسكر من غزوة بنى المصطلق ، قد رآكما « مسطح » منفردين وأنت على بعير صفوان ، وحدث به الناس .. ولا أرى إلا أن النبى قد علم به !.. » واستوت عائشة على فراشها قائمة تصيح : « أنا وصفوان » ؟ أنا ؟ « أنا وصفوان » ؟ ونظرت إلى أمها : « يغفر الله لك ! تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟!. فقالت أمها وهى مطرقة :

ـــ أى بنية ، خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها !.. وتردد عائشة باكية : « أنا وصفوان » ؟! ومسطح قد رآنا ؟! فتقول أم مسطح :

ـــ هونى عليك .. إنه حديث إفك !.

وتقول عائشة وهى تبكى : إنى .. إنى حقا كنت على بعير صفوان ..

فالتفت إليها الجميع : « حقا ؟!.. أنت ؟ » .

فقالت عائشة وهى تكفكف دموعها : « أقص الخبر .. لما كانت غزوة بنى المصطلق اقترع رسول الله بين نسائه كما يصنع ـــ فخرج سهمى عليهن ، فخرج بى .

فلما فرغ من سفره ذلك ، وجه قافلا حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيل فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد .. فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى الرحل ، ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده .. وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ألتمسه حتى وجدته .. وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى بعيرى ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه .. فانطلقوا به .. فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى .. فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى « صفوان السلمى » وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على ، فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله !.. » ما خلفك يرحمك الله !.. ثم قرب بعيره ، فركبت . وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعا يطلب الناس .. فوالله ما أدركنا الناس .. فقال أهل الإفك ما قالوا .. ووالله ما أعلم بشىء من ذلك إلا منك يا أم مسطح الآن .. والآن أدركت علة ما كنت أنكر من رسول الله .. إنى لأدرك الساعة ما به ..

(من كتاب « محمد » ١٩٣٦)

المرأة الجديدة

عام ١٩٢٣

مسرحيتى « المرأة الجديدة » التى كتبتها فى سنة ١٩٢٣ . ومثلتها جوقة « عكاشة » سنة ١٩٢٦ وكنت قد غادرت مصر ولم أشاهد تمثيلها حتى اليوم . وكنت فى فرنسا أقرأ أخبارها من الصحف التى تصلنى من مصر .. وعندما نشرت لى بعد ذلك مجموعة من مسرحيات فيما سمى « المسرح المنوع » كنت قد عثرت على نسخة خطية لهذه المسرحية وهى نسخة « الملقن » .. وقد كتبت لها مقدمة .. جاء فيها : « ... ولم أر بأسا فى نشرها اليوم ، لما أوحته إلى وما قد توحيه إلى قارئ هذا

الجيل من ملاحظات .. منها موقفى من حركة « سفور المرأة » التى نشطت فى ذلك الحين عقب ثورة ١٩١٩ على وجه الخصوص .. وخروج النساء بالمظاهرات أمامنا متحجبات بالبراقع و « الياشمك » .. ذلك الموقف عندى الذى ينم عن خوف وقلق .. وكان مصدر الخوف والقلق كما عبرت عنه المسرحية راجعا إلى ما كنا نتوقعه من أثر السفور على فكرة الزواج نفسها .. وأثر الاختلاط السافر فى الزوجية .. وقد كان القلق والخوف من أن يؤدى الاختلاط إلى الانصراف عن الارتباط الزوجى ، ما دامت المرأة قد خرجت لهم سافرة .. وأن يجد الجميع فى تقارب الجنسين وسهولة الاتصال بينهما ما يطفىء رغبة التلاقى عن طريق الزواج .. كما كان الخوف والقلق من السفور فى الأسر ، واختلاط زوج هذه بزوجة ذاك أو بغيرها ، أن يؤدى الأمر إلى انهيار الحياة الزوجية والأسرية .. وما من شك عند قارىء الجيل الحاضر فى أن بعض تلك المخاوف لم يكن لها محل .. فالأيام قد أثبتت أن سفور المرأة لم يؤثر فى فكرة الزواج بصورة تدعو إلى الانزعاج .. أما تزعزع الحياة الزوجية والأسرية فى المجتمع الحديث من أثر الاختلاط ، فقد يكون موضع اعتبار .. وإنى أترك تقدير ذلك ودرجته للمعنيين بالبحث والدرس والإحصاء الاجتماعى فى مجتمعنا المعاصر .. على أن من الإنصاف لحركة المرأة الجديدة فى ماضيها وحاضرها — وموقفى منها الذى أغضب زعيمتها « هدى شعراوى » — أن نعترف بأن الكثير من مخاوف اللحظة قد لا تحققها ظروف الغد .. فالتندر على مطامع المرأة السياسية اليوم — وأنا أكتب هذا الكلام — فى الأربعينات أى بعد مرور نحو ربع قرن من كتابة مسرحيتى « المرأة الجديدة » .. قد يكون تجنيا عندما نرى فى المستقبل أن أوضاع الحياة الحديثة قد استقرت دون أن يقع مما توهمنا شىء ذو خطر . لقد تعودنا اليوم منظر المحامية والصحفية والموظفة والأستاذة الجامعية .. وما من شىء يمنع غدا من تعودنا منظر النائبة والوزيرة .. كثير من أفكارنا الحاضرة سيبدو غريبا فى المجتمع الذى سيولد بعد ثلاثين سنة !..

وأنا على استعداد دائم لإعادة النظر فى أفكارى ومواقفى . لأن طبيعتى التحليل وليس التجميد . ولست أعرف الحب المطلق ولا العداوة المطلقة . وفى المرأة والسياسة قد أحب الشخص وأعادى مبادئه .. ولى أصدقاء كثيرون أحبهم وهم من أحزاب

ومبادىء لا يمكن أن أعتنقها أو أنحاز إليها .. والمرأة أيضا أحبها دائما ولكننى أعاديها لمبادىء عندها لا يمكن أن أوافق عليها .. فمن رآنى محبا أو صديقا لشخص فلا يخطىء ويظن أنى موافق على أفكاره ومواقفه .. لذلك لست أعرف المواقف الثابتة .. فى الخصومة الراسخة والعداوة الدائمة .. لأن من طبيعتى التحليل والمراجعة .. ولهذا لم أنضم فى حياتى إلى حزب ، سياسى أو اجتماعى . لأن مبادىء الحزب ومشاعره ثابتة تسمح فقط بالانتماء ..

تأتى بعد ذلك ملاحظة تتعلق بالأدب .. فمراجعتى لهذه المسرحية نبهتنى إلى أن قضايا العصر ومشكلات المجتمع كانت منبع وحى لنا فى أوائل العشرينات وقبلها .. فالقول أحيانا بأن أدبنا الحديث لائذ بأبراج العزلة ، مقطوع الصلة بالمجتمع وأفكاره واتجاهاته هو قول مجحف فى الغالب .. وربما كان السبب فيه عدم التفريق بين أدب الدرس والبحث وأدب الخلق والتصوير .. فالأدب المرموق المحترم فى بلادنا العربية حتى مطلع هذا الجيل ، كان أدب البحث والدرس ، وهو بطبيعته يدعو أدباءه إلى أن يعكفوا على النصوص القديمة واللغة الفصيحة ، وهم بغوصهم فى هذه النصوص والمتون تنقطع بالضرورة صلتهم بما حولهم من شئون المجتمع والناس ولغتهم التى يتخاطبون بها .. ولو أن هذا ما بدأنا نفطن إليه منذ أوائل العشرينات على أثر الثورة المصرية عام ١٩١٩ .. وعكفنا على هذين الوجهين للأدب اللذان يكمل أحدهما الآخر : أدب البحث والدرس بما يجلو نصوص الأجيال الغابرة ويظهر الفصحى فى أحدث وأبدع أثوابها ، وأدب التصوير والخلق بما يبرزه من أحوال المجتمع المعاصر فى نصوص حديثة سيفحصها الأدباء والباحثون فى الأجيال القادمة .. وهكذا دواليك .. لهذا أعتقد أن أدب التصوير لا يستطيع أن يقطع صلته بقضايا عصره ومشكلات مجتمعه ، دون أن يجد العنت والإرهاق اللذين يلقاهما هذا الأدب .. فأدبنا التصويرى إذن قد استلهم فى أغلب الأحيان منذ زمن طويل مجتمعه وبيئته ، واستخدم الريشة التى رآها مناسبة لأداء الألوان الطبيعية ، دون حرج أو احتفال برأى المتزمتين .. هذه الحرية الفنية فى تسجيل البيئة بلغاتها قد أخرجت ثروة من الأعمال

والأزجال ، فيها من صور مجتمعنا المعاصر ما سوف يتأمله الباحثون فى مستقبل الأيام .. ذلك أن لكل عصر طائفته من الأدباء الدارسين .. فجيلنا الحاضر هو جيل البحث فى المتون الفصيحة ولذلك حظى أصحابه بالاحترام واعتبروا أنهم هم الأدباء ، أما الفن التصويرى ، وبالأخص المسرح ولغته العامية ، فلم يعتبروه من الأدب الذى يحترم .. وربما جاء الجيل القادم بالباحثين فى المتون الفصيحة والشعبية على السواء .. كما أنه قد يؤكد مكانة الأدب وصلته بمجتمعه فلا يخلطون أحيانا بين مهمة الأدب ومهمة الصحافة .. فليس هدف الأديب أن ينغمر فى المناسبات انغمار الصحفى ليخرج بشىء سريع يمضى سريعا .. ولكن هدفه أن يتشرب حاضره بتؤدة لينضجه بعدئذ شيئا لا يمضى بمضى الأيام .. أما بعد : فتلك بعض خواطر ، أثارتها مراجعة هذه المسرحية القديمة (التى وضعت بالعامية فى إطار الفكاهة التى كانت سائدة فى ذلك العصر) .. ولعلها تثير فى قراء جيلها والأجيال الأخرى بعض الخواطر والذكريات .

(١٩٢٣ ـــ المسرح المنوع ١٩٥٤)

منظر من مسرحية « المرأة الجديدة »

عام ١٩٢٣

محمود بك والد العروس « ليلى » وهو ينفرد بالعريس « سليمان » للكلام فى موعد « كتب الكتاب » .. ويجرى بينهما هذا الحوار :

محمود : نهايته .. نتكلم بقا فى موضوعنا .. أنتم طبعا الحمد لله متفقين ..

سليمان : قوى ... قوى ...

محمود : عال ... يوم إيه بقى ؟..

سليمان : هو إيه ؟..

محمود : مش بتقول متفقين ؟..

سليمان : طبعا .. متفقين فى العشرة والأخلاق والطباع ..

محمود : قصدى على يوم كتب الكتاب ..

سليمان : آه ... لا ... لسة ما وصلناش للموضوع ده ...

محمود : شيء جميل خالص !.. لسة ما وصلتوش للموضوع ده ؟!.. أمال احنا جامعين العائلة إزاى .. علشان كتب الكتاب ؟..

سليمان : طيب .. بس روق .. متفقين .. النهاردة مش الجمعة ؟.. يوم الأحد بإذن الله !..

محمود : عال .. قل لى بقى يا سيدى .. كتب الكتاب بالفرح بالكل يكون هنا .. حاجة مقتصرة كده ونتهى .. موافق ؟..

سليمان : موافق ..

محمود : ثم أظن أنا كنت قلت لك على الشروط ..

سليمان : شروط إيه ؟..

محمود : يعنى ثروة بنتى وجهازها و ..

سليمان : آه .. قلت لى .. دا شيء معتبر جدا .. لكن ما لوش عندى أهمية ..

محمود : طيب . وانت بقى ؟

سليمان : .. أنا موافق ومبسوط .. طبعا ..

محمود : لا .. قصدى .. وانت يعنى .. على . المهر ..

سليمان : مهر ؟!.. آه .. مظبوط ..

محمود : ما تآخذنيش فى السؤال ده .. مش لطيف .. لكن طبعا لازم نتفاهم قبل « كتب الكتاب » على كل حاجة .. من جهة بنتى .. انت عرفت .. ومن جهتك ؟..

سليمان : آه ... من الجهة دى ؟!

محمود : قل ... ما فيش خجل أبدا .. قل لى بينى وبينك .. مقدار ثروتك .. واحنا نقدر .. طبعا المسألة مش مسألة فلوس أبدا .. انت عارف ... الغرض نستوفى إجراءات العقد .. بس ..

سليمان : مفهوم ..

محمود : هه !.. قد إيه بقى ؟ ثروتك بالضبط ؟..

سليمان : ثروتى ؟! يعنى .. كل أملاكى ؟..

محمود : آه طبعا ..

سليمان : يعنى يدخل فيها الملبوسات والموبيليات وأوانى البيت وأدوات الـ ..

محمود : أوانى إيه .. وأدوات إيه .. ثروتك ؟..

سليمان : ما هو أصل المرحوم والدى كان ترك لى ثروة كويسة .. إنما بقى ولا يخفى على فطنتكم إن الفلوس دى .. طبعا انت عارف ..

محمود : عارف .. أنا باسأل على اللى باق لك دلوقتى ؟..

سليمان : اللى باق لى دلوقت ؟.. شوف .. أنا ضربت الحسبة كلها فى بعضها النهارده ، فوجدت اللى باق لى .. هه .. شيء مخجل !..

محمود : قل .. مهما كان .. ما يهمش أبدا ..

سليمان : لقيت اللى باق لى .. هو ١٧ ..

محمود : ١٧ فدان ؟

سليمان : احنا بنتكلم فى فلوس نقدية ..

محمود : آه .. بقى لك ١٧ جنيه إيراد ؟..

سليمان : ١٧ صاغ ..

محمود : ١٧ قرش صاغ إيراد ؟..

سليمان : رأس مال ..

محمود : (**ضاحكا فى دهشة**) رأس مالك ١٧ قرش صاغ ؟!

سليمان : يا محمود بك .. أنا مش من اللى يجروا ورا المال .. أنا أحتقر المال !.. والفلوس عندى ماهاش قيمة !.. لأن الحياة مش بالفلوس .. الحياة تجيب الفلوس : لكن الفلوس ما تجيبش الحياة ..

محمود : صدقت والله يا سليمان !.. لا .. مش قصدى أبدا .. لا سمح الله !.. أنا عارف أخلاقك كويس .. أنا من يوم ما شفتك عرفت إن الواحد بأخلاقه يساوى كنوز الأرض .. وحمدت ربنا إن بنتى « ليلى » اختارتك ..

ليلى : (**تظهر**) بابا .. فيه واحد جه ..

محمود : آه .. عن إذنكم .. (**يترك سليمان وليلى وينصرف** ..)

ليلى : (**لسليمان**) كنتم بتتكلموا فى إيه ؟..

سليمان : كنا بنتفق ..

ليلى : على إيه ؟..

سليمان : على يوم « كتب الكتاب » .. خلاص حايكون إن شاء الله يوم الأحد ..

ليلى : كتب كتاب مين ؟..

سليمان : كتاب مين ؟.. فيه حد غيرنا ؟.. كتب كتابنا .. طبعا ..

ليلى : تعرف المشمش ؟..

سليمان : المشمش اللى عند الفكهانى ؟.. والا اللى محفوظ فى العلب ؟..

ليلى : المشمش وبس .. تعرفه ؟..

سليمان : عارفه كويس .. المشمش اللى لونه أصفر ..

ليلى : أصفر .. أحمر .. مسألة جوازنا دى فى المشمش !..

سليمان : يا نهار أسود !..

ليلى : أسود .. أزرق .. حط كل الألوان اللى تعجبك ؟! لكـن .. جواز مافيش ..

سليمان : جواز مافيش ؟!..

ليلى : وأنا مستعجبة إزاى تكلم « بابا » فى موضوع زى ده ؟!.

سليمان : أمال أنا جاى هنا أعمل إيه ؟.. وصفتى فى العائلة إيه ؟..

ليلى : إزاى يا حضرة الأفندى تتفق معه من غير ما تقول لى ؟..

سليمان : آه .. فى النقطة دى صحيح أنا غلطان .. لكن لو تعرفى الحقيقة .. أنا معذور .. أنا موجود هنا بصفتى عريسك .. وأبوك زعل لما قلت له إننا لسه ما اتفقناش .. أعمل إيه ؟! اضطريت أكذب وأقول متفقين ..

ليلى : متفقين ؟!..

سليمان : وفيها إيه ؟.. مصيرنا كنا حانتفق .. ما دمنا بنحب بعض .. فى أمان الله !..

ليلى : بنحب بعض ؟..

سليمان : آه .. طبعا ..

ليلى : أنا ما بحبكش ..

سليمان : إزاى ؟..

ليلى : كده ..

سليمان : كده إيه ؟.. لا .. أبدا يا ليلى مش ممكن ؟.. انت ما بتحبنيش ؟ ليه ؟.. اسمعنى أنا بحبك ؟..

ليلى : حب على كيفك .. أنت حر .. وأنا حرة ..

سليمان : مش معقول !..

ليلى : سبق قلت لك إنى بحبك ؟!.

سليمان : لكن انت بتحبى تقعدى معايه وتتفسحى معايه ..

ليلى : دا بس علشان انت جدع مسلى .. حكاية تضييع وقت !..

سليمان : تضييع وقت ؟! يعنى أنا عندك عبارة عن مضيعاتى أوقات .. زى الطاولة والضمنو واللب والفسدق .. تسالى ..

ليلى : مش كده بالضبط .. انت عبارة عن واحد صاحبى .. صديق لا غير .. انت مالكش أصحاب اسمهم مثلا : محمدين .. حسنين .. عوضين ؟..

سليمان : محمدين .. حسنين . عوضين .. مين ؟ انت ؟..

ليلى : بالظبط .. إيه الفرق ؟..

سليمان : لأ .. مافيش فرق !..

ليلى : الحكاية كلها عادة . عادة قديمة لازم تبطل .. أنا فى نظرك واحدة ست وبس .. لكن بكرة تتعود وتعتبرنى زى واحد صاحبك تماما ..

سليمان : واحد صاحبى تماما .. بالشعر ده ؟ والرموش دى ؟ والشفايف دى ؟ لأ اسمحى لى .. فلسفة المرأة الجديدة دى ما تدخلش عقلى .. ولو قعدت تقولى لى فى الكلام الفارغ ده تلاتين سنة مستحيل أصدق إنه فى حاجة اسمها صداقة بين شاب وشابة .. يا يكون بينهم حب يا بلاش !..

ليلى : بلاش ..

سليمان : انت متراهنة على تطليع روحى ؟! اسمعى بقى .. قولى لى آخر كلام : فيه جواز والا مافيش ؟..

ليلى : مافيش ..

سليمان : فيه حب ولا مافيش ؟..

ليلى : مافيش ..

سليمان : طيب .. سلام عليكم .. (**يهم بالانصراف**) .

ليلى : رايح فين ؟
سليمان : رايح فى داهية ..
ليلى : مش حاتلقى الداهية غير هنا ..
سليمان : وأنا قتيل الداهية دى .. مش منقول !..
ليلى : بس الداهية مش عايزاك .. ولا قابلاك .. بأفكارك القديمة دى .. اسمع يا سليمان . خليك عاقل وافهم غرضى .. ليه انت مش عاوز نكون أصحاب أصدقاء .. ما فيش فرق بيننا .. كأننا احنا الاتنين رجاله .. ليه مش عايز تعتبرنى واحد صاحبك ؟..
سليمان : واسمك : محمدين .. حسنين .. عوضين ..
ليلى : أمال بكره لما حانكون نواب ومحامين ومهندسين ..
سليمان : وظباط وعساكر وحرامية .. وليه يارب الأذية دى ؟؟ مش قعدتكم فى البيت أحسن ؟!
ليلى : ضرورى حاييجى يوم نبقى كده !.. زينا زيكم تماما .. مافيش فرق أبدا .. بيننا وبينكم ..
سليمان : تماما ..!.. طيب اسمعى يا ليلى .. ما تيجى نكتب الكتاب النهارده قبل ما ييجى اليوم الأغبر ده ؟!..
ليلى : مستحيل !.. جواز لأ .. صداقة ومساواة أيوه ..
سليمان : لكن ده لابد يا ليلى .. أنا اتفقت خلاص مع أبوك ..
ليلى : اعرفوا شغلكم .. أنتم أحرار . وانا حرة ..
سليمان : والسبب إيه بس ؟.. الصداقة والمساواة والأفكار دى ؟.. طيب وانا بقى علشان خاطر كده أعمل إيه دلوقت ؟.. دا شىء يجنن ؟ يا ناس !.. الله يرحمك بقى يا « قاسم بك أمين » .. انتم يا ستات الواحد يترك لكم حرية ؟!.. نترك لكم حرية إزاى ؟.. إزاى بس !.. مش ممكن !.. الله يجازى اللى حط الكلام ده فى عقلكم !.

(المرأة الجديدة عام ١٩٢٣)

فى الشعر

لا تلمنــــــى على البكـــــــاء فإنى
نضو شجـــو ما لمت فيـــــه البكـــــاء
عدلا يتـــــــــرك الحنين أنينـــــــــا
فى هوى يتـــــرك الدمـــــوع دمـــــاء
كيــف أغـــدو من الصبابـــة خلـــــوا
بعدمـــــــا راحت الديـــــــار خلاء
فجعلنـــا الـــــوداع فيـــــه سلامـــا
وجعلنـــا الفـــــراق فيـــــه لقـــــاء

(البحترى)

* *

إذا الحسان حملــــن الحلى أسلحــــــة
فإنما حليها الأجيـــــاد والمقـــــــل
من لى ببـــارق رعـــد خلفـــه مطـــــر
وكيـــف لى بعتـــاب بعـــده خجـــل
ولا ناصر غير دمعـــى إن هم ظلمـــوا
والدمـــــع عون لمن ضاقت به الحيـــل

(الشريف الرضى)

* *

الزوجة المثلى

لم يرو لنا التاريخ أن « النبى العربى » (صلوات الله وسلامه عليه) عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل « خديجة » .. فلقد كانت حياته ، حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء .. فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره .. ما الذى كان يشغل رأس الشاب « محمد » فى تلك السن ؟.. ما دام اللهو والمرأة لم يكن لهما محل عنده ؟.. أتراه كان يحس فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟.. إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة ، إلا الشاب الموعود برسالة عظمى ، فهو يعيش دائما مع شبح الرسالة المنتظرة .. ومن يدرى لو لم تكن « خديجة » هى البادئة بالحب ما الذى كان يحدث ؟.. كل شىء يدل على أن الزواج لم يكن ليخطر له على بال ... فقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا وكأنه لا يمشى على هذه الأرض .. إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ، وقد كانت ذات مال وتجارة ، تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال ، فأرسلت الشاب « محمدا » فى تجارتها فعاد رابحا ضعف ما كانت تربح التجارة على يد غيره ، لأمانته واجتهاده .. وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » وقد رافق محمدا فى رحلته ما رآه من الشاب المستقيم الأمين .. فنبع الحب من قلب خديجة .. ولقد كان هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع أن يفتح قلب محمد .. ولقد كان ذلك رائعا حقا من امرأة مثلها ذات شرف وثروة ، أن تبدأ هى الخطوة الأولى نحو رجل فقير يتيم .. هى التى تقدم إليها أكرم رجال قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا طلبوها فلم تلتفت إليهم .. وأرسلت تابعتها « نفيسة » إلى الشاب اليتيم « محمد » تعرض عليه يدها .. وتزوجته ورأت أيام شكه وقلقه وشقائه .. رأته وهو يدخل عليها مرتعدا من الروع الشديد قائلا : « دثرونى .. دثرونى !.. » فتدثره حادبة عليه ، قائلة له : « رحمة بى . خبرنى بأمرك » فيقول لها : « إنى إذ خلوت بنفسى سمعت نداء خلفى : « يا

محمد » « يا محمد » .. فأنطلق هاربا فى الأرض .. لقد خشيت على نفسى .. إنى أرى ضوءا وأسمع صوتا .. وإنى لأخشى أن أكون كاهنا يا خديجة !.. والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط ولا الكهان ... فتقول له : « هون عليك !.. والله ما يخزيك الله أبدا .. إن الله لا يفعل ذلك بك أبدا .. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وإن خلقك لكريم ! » .. وبهذا تسرى عنه .. ولا تهزأ به كما هزأ به قومه الذين سبوه وسفهوه وآدوه وحثوا على رأسه التراب .. بل آمنت به وصدقته يوم لم يجد حوله أحدا يحمل كلامه محمل الجد.. ولقد جاءها يوما يخبرها مرتاعا أنه رأى ملكا هبط عليه من السماء وكلمه وسمع صوته ، وليس يدرى أملك هو أم شيطان ؟ فأرادت أن تقطع شكه بيقين فقالت له : « إذا جاءك صاحبك هذا الذى يأتيك فأخبرنى به » .. فلما نزل عليه جبريل أخبرها ..فنزعت خمارها وقالت له : « هل تراه الآن ؟ ».. فنظر محمد فلم ير جبريل .. وقال « لا » .. وهنا صاحت خديجة فرحة : « اثبت وأبشر .. فوالله إنه لملك وما هو بشيطان ، إذ لو كان شيطانا لما استحيا .. » وهكذا ظلت خديجة إلى جانبه تبدد شكوكه وتؤمن برسالته .. إلى ساعتها الأخيرة .. ويوم علم أعداء محمد بقرب وفاتها ، تهامسوا فرحين : « خديجة فى الموت » !.. ولم يستطع أبو لهب عدو النبى الأكبر أن يكتم اغتباطه فجعل يقول لمن معه : « أجل عما قليل تذهب تلك التى كانت تشد أزره وتعز شأنه » .. ولفظت خديجة روحها التى كانت منبع ذلك الحب .. الذى استطاع بقوته وسموه أن يفتح قلب محمد وأن يملأه كل تلك الأعوام التى عاشها .. بل إن هذا الحب لم ينطفئ بموت خديجة .. ولقد ظل مكانها من قلبه قائما دائما .. ولم تستطع امرأة قط أن تزاحمها فيه .. حتى « عائشة » التى كانت بعد ذلك أحب امرأة إلى قلبه ، ما استطاعت أن ترتفع إلى مكان خديجة من نفسه .. ولقد غرها يوما حب النبى لها فقالت له بدلال : « ألست خير النساء عندك ؟!.. » فأجابها على الفور : « وخديجة ؟ » فقالت له : « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها » .. وكانت زلة .. لم تدرك مداها إلا بما بدا على وجه محمد من غضب شديد .. فقد نهض تاركا لها المكان وهو يقول : « والله ما أبدلنى الله خيرا منها : آمنت بى حين كذبنى

الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس » !.. وكظمت عائشة غيظها فى صدرها وهى تهمس : « لكأنه ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة !.. » .. حقا .. نعم ليس فى الأرض غير قليل من النساء مثل خديجة !.. إن المرأة النادرة هى هبة الله الكبرى ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

البحث عن امرأة

وبالنسبة لى لا أقول نادرة ، بل فقط مناسبة لى . ولا حتى هذه بل فقط ترضى بى . ولبثت الأعوام أبحث حتى بلغت الكهولة ... دون جدوى .. فمنذ شبابى وفوق رأسى لافتة أو « يافطة » مكتوب عليها « عدو المرأة » .. وقد سبق أن نشرت وصفا لذلك فى مقال قديم جاء فيه : « ... ومضت بى الحياة إلى حيث انقطعت للكتابة — بعد تركى السلك القضائى — وأخذت فى معالجة شئون المجتمع وقضاياه ، ومنها قضية المرأة وحريتها وملاحظاتى على ذلك التى ألصقت بى وصف «عدو المرأة».. إلى أن كاد ينحدر بى العمر إلى الحد الذى يحتم اتخاذ قرار فى أمر الزواج قبل أن يفوت الأوان .. فاستخرت الله وقمت أسأل وأبحث .. فإذا الأبواب كلها تقفل فى وجهى .. أنا الذى كنت محل ترحيب العائلات وأنا وكيل نيابة .. وعلمت أن وصف « عدو المرأة » قد أخذ على سبيل الجد .. وما من فتاة فى سن الزواج تسمع باسمى حتى تصيح فى أهلها : « أعوذ بالله !.. إياكم أن ترموا بى إلى عدو المرأة هذا » ... كل امرأة كانت تتصور أنى وحش سيأكلها أو سفاح سيخنقها .. وما من صديق كلفته أن يبحث لى عن عروس إلا فشل فى مهمته .. وعاد قائلا : « نعمل لك إيه ؟.. النسوان خايفة منك ! » .. وجاءنى ذات يوم صديق عزيز متطوع ، رثى لحالى وصمم على أن يجد لى عروسا بأى طريقة .. ولكنه عاد بعد أيام يقول لى : « أنا كنت على وشك ضرب صديق قديم بحذائى من أجلك ! » ... وحكى لى ما حدث قائلا أنه كان مدعوا على الغداء عند هذا الصديق الحميم ... وكانت له بنت كبيرة متعلمة مهذبة وأخرى صغيرة لا تقل عنها تعليما وتهذيبا .. وبعد شرب القهوة قاده

صديقه إلى مكتبته وأشار إلى رف صفت عليه كتب مجلدة بماء الذهب وقال له بإعجاب : « انظر هذه مؤلفات توفيق الحكيم .. إنى أعتز بها كل الاعتزاز .. إنى من أشد المعجبين به » .. فانتهز صاحبى الفرصة ، وبادره قائلا :

ــ ما دمت معجبا به هذا الإعجاب ، وتحتفظ بمؤلفاته مجلدة بالذهب ، فإنه يسرك ولا شك أن تعلم أنه الآن عازم على الزواج .. وأنا أرى أن ابنتك الكبرى تصلح له جدا .. فما رأيك ؟

وإذا بصاحبى المسكين يفاجأ بهذا الصديق القديم الحميم والد البنت ينتفض غضبا ، ويصيح به فى سخط وهياج :

ــ ما هذا التهريج يا رجل !.. هل أصابك الجنون حتى تتصور أنى أزوج بنتى لهذا الفنان البوهيمى الحشاش الأفيونجى ؟!.

فبهت صديقى وقال :

ــ حشاش أفيونجى !.. دا طول عمره ما دخن سيجارة !..

فقال الوالد المحترم :

ــ اسكت بقى واقفل الموضوع .. أنا كنت فاكر انك صديق عاقل مخلص !.. عمرى ما كنت أصدق أنك تطلب منى أوقع بنتى الغالية الوقعة السودة الهباب دى !..

فنهض صاحبى محتجا وهو يصيح :

ــ وأنا كنت فاكر أنك شخص مثقف .. بنى آدم .. عمرى ما كنت أصدق أنك حيوان .. جاهل ... بالدرجة دى .. اخص عليك . منحط مغفل .. عديم الفهم والإدراك .. سلام عليكم !..

وخرج من بيته وقد تمت القطيعة بينهما بسببى .. ويئست أنا من الزواج . ثم جاءتنى الفكرة فى نهاية المطاف أن ألجأ ــ كما ذكرت ــ إلى زعيمة النهضة النسائية « هدى شعراوى » رافعا الراية البيضاء ، شأن العدو المنهزم الطالب التسليم بغير قيد ولا شرط . واستقبلتنى السيدة الزعيمة بالترحاب فى صالون قصرها المشيد على طراز العمارة الإسلامية فى مكانه الذى كان مطلا على الميدان المسمى اليوم ميدان

التحرير .. وقبل أن أتفوه بكلمة بادرتنى هى بقولها :

ــ أنت مازلت عدو المرأة ؟..

فما كدت أفتح فمى لأوضح الأمر وأبسط سبب زيارتى ، حتى سبقتنى هى إلى الكلام بقولها :

ــ عرفت أن عند بناتنا فكرة عقد محاكمة لك ؟؟

ــ محاكمة ؟!

قلتها وقد فوجئت بالفعل بذلك .. وفى وقت مجيئى لطلب الزواج ؟؟ فقالت :

ــ طبعا .. لأنك عاوز ترجعنا لعهد الجوارى !..

وأخذت الزعيمة الفاضلة تسرد ما سبق لى نشره عن وجوب دخول المرأة المطبخ . ثم عما كانت قد علمت به من إدلائى بحديث لصحفى أجنبى شبهت فيه الزواج بالسيارة .. وقلت إن السيارة تسير بأربع عجلات ، فلماذا لا تسير الزوجية بأربع زوجات ؟... زوجة للمطبخ تجيد الطهو .. وزوجة للحديث تجيد الكلام .. وزوجة للخروج تجيد رفقة الطريق .. وزوجة للعقل تجيد التفكير .. وهذا التنويع فى الزوجات يفى بكل الطلبات ويقوم بكل الاختصاصات .. وهو ما لا يتوفر ويتجمع فى زوجة واحدة .. وإذا اخترعت يوما سيارة بعجلة واحدة ، فقد نأمل فى زوجية كاملةناجحة سعيدة بزوجة واحدة ..

واجهتنى السيدة الزعيمة بكل ذلك وهى تقول أنها علمت أن الصحفى الأمريكى نشر حديثى هذا فى صحف عديدة بولايات أمريكا ..

قالت « هدى شعراوى » كل هذا ، بينما أنا أفكر فى المصيبة التى تقع على رأسى إذا أقيمت حقا محاكمة تواجهنى بكل ذلك حضرات النساء .. وعندئذ يقضى على كل أمل فى الزواج ... لقد رأيت المخرج فى مواجهة الموضوع بشجاعة .. فقلت بسرعة :

ــ أنا جئت للصلح ..

ــ الصلح ؟!.

قالتها الزعيمة وهى تفحصنى بنظرة طويلة لتتأكد من جدية قولى .. وبادرت أنا

بشرح مقصدى :

ـــ جئت أطلب مساعدتك فى الزواج : زوجة واحدة والله العظيم .. زوجة تتفضلين أنت باختيارها لى .. نعم زوجة واحدة فقط .. ولو على سبيل التجربة والاختبار ..

ـــ تجربة واختبار ؟!..

قالتها فى دهشة واحتجاج .. وفطنت أنا إلى أنها زلة لسان منى .. ولعنت غلطتى التى تكشف عن نية لا تبشر بخير .. وحاولت جاهدا أن أزيل هذا الفهم من ذهنها .. ومكثت عندها وقتا أقنعتها بحسن نيتى حتى هدأ خاطرها وابتسمت ورضيت أن تختار لى عروسا .. وكانت هدى شعراوى فى الحق سيدة فاضلة عظيمة متسامحة كريمة ، فقامت على الفور واختارت لى واحدة من المقربات إليها المخلصات للعمل معها فى حزبها النسائى .. غير أنى ما كدت أعرف ذلك حتى دب القلق فى نفسى ، وأدركت أن مثل هذه الزوجة سوف تجعل من بيتى فرعا تابعا لمركز هذا النشاط لحزب النساء ، وسوف يمتلئ منزلى بأعضاء و « عضوات » الحزب والصحافة ووجع الدماغ ، وأنا الذى ابتعدت عن الأحزاب السياسية جميعا لأحتفظ باستقلالى فى حياتى وتفكيرى .. وهكذا لم تنجح هذه المحاولة أيضا .. واستمرت بعد ذلك المحاولات .. وكلها باءت أيضا بالفشل .. حتى دب فى نفسى اليأس . أو كاد .. وانتهى بى الأمر أن طرحت هذا الموضوع من رأسى . وتركت الله تعالى فى علاه هو الذى يختار لى الزوجة .. إذا كان قد قدر لى الزواج .. وهو أدرى بى ، وبما يصلح لى .. وبما يناسب طبيعتى التى خلقنى بها : وهى التى تريد امرأة بجانبى وتشعرنى دائما بأنها غير موجودة ..

الـــزواج

٦/ ٦/ ١٩٤٦

وأخيرا .. اختار لى الله .. ومن أقرب الطرق .. فقد كان لى وقتئذ صديق أو على الأصح تلميذ .. لى كما يقول هو لارتباطه الثقافى بى .. فقد كانت بالفعل ثقافته هى التى قربته منى .. فقد كان يترجم أعمال سوفوكليس وأيروبيديس من عمالقة الإغريق الذين أقدرهم .. لتمكنه من اللغة الإنجليزية ودراسته فى إنجلترا ضمن بعثة من المتفوقين عين بعد عودته فيها مدرسا فى كلية أركان الحرب .. رأيته ذات يوم فى الطريق إلى سينما مترو،وفى ذراعه سيدة فى نحو الثلاثين.. فحسبته قد تزوج.. فأخبرنى أنها أخته وأنه يخرج بها إلى السينما لأن شقيقهما الأكبر اللواء فتحى وأمه سودانية صالحة متغيب . وشقيقهما الأوسط الدكتور لطفى الأستاذ المساعد وقتذاك فى كلية طب الإسكندرية مسافر فى لندن .. وهى فى ذلك الوقت وحيدة لأنها مطلقة ... لأن والدها اختار لها زوجها وهو شاب ممتاز خريج تجارة عليا واهتماماته كلها الأرقام والأعمال الاقتصادية والمصارف ومن أسرة ميسورة يعرفها جيدا .. أما هى فاهتماماتها أدبية ودراستها بدأت فى المدارس الفرنسية ثم نقلها والدها بعد ذلك إلى المدارس المصرية فتعلقت بالأدب العربى .. وكلما أراد أن يدفع لها المصروفات أخبروه أنها حائزة على مجانية تفوق .. وأنها من قارئات مجلة الرسالة التى لا يقرؤها وقتذاك غير طبقة المثقفين ، وكان هذا الاختلاف فى طبيعة الثقافة قد جعل التفاهم متعذرا فلم ينجح الزواج .. ولهذا عندما أصبحت لى بنت لم أتدخل فى اختيارها لمصيرها .. ولم نتكلم فى هذا الموضوع بعد ذلك .. إلى أن هدانى الله إلى التفكير فى هدا الاتجاه .. وانتهى الأمر بأن فاتحت فى ذلك شقيقها الأصغر وتلميذى فرحب بالطبع . ولو كان والدها على قيد الحياة لرفضنى ، فقد كان يكره كتبى ، وعندما رأى أولاده يقرأون كتابى « محمد » نصحهم بأن يقرأوا بدلا منه كتاب « حياة محمد » لهيكل ، وإن

كانوا قد فاجأوه يقرأ كتابى سرا ويقول إن هذا لمجرد حب الاستطلاع .. ولولا شقيقها الأصغر « فهيم » لما تم هذا الزواج أيضا .. فقد كان هو المتحمس لى ... وكان له الفضل فى تسهيل كل شيء .. حتى وضعت العروس خاتم الخطبة فى أصبعها .. وأذكر الآن أنها قالت لى قبل إتمام العقد وهى تخلع الخاتم من أصبعها أنها تخشى أن يكون شقيقها « فهيم » هو الذى أثر على إرادتى وطلبت منى أن أعيد التفكير جيدا .. فطمأنتها وأكدت لها أنى لست فى مبدأ الشباب حتى تؤثر فى قرارى أى إرادة أخرى ..

وبدأت الحياة الزوجية وبدأ معها الحنين إلى حياة العزوبة والحرية التى اعتدتها دائما .. مع أنها حفظت لى حريتى المطلقة .. فلم تتذمر بكلمة أو إشارة عندما كنت أعود إلى المنزل قرب الفجر أو أدخل حجرتى الخاصة وأغلقها على نفسى وأكتب .. فكانت توفر لى الهدوء التام .. حدث ذات يوم أن كانت تمر فى سيارة « تاكسى » أمام مطعم فرأتنى خلف النافذة المفتوحة أجلس إلى مائدة مع شابة أجنبية شقراء دعوتها إلى الغداء ، فعادت بالسيارة إلى شقيقها وطلبت منه أن يذهب معها لتريه منظرا يجب أن يراه فركب معها وأرته منظرى مع الشابة الشقراء ، فقال لها فى الحال : « وماذا فى هذا ؟.. أنسيت أن زوجك فنان .. حاذرى أن تفاتحيه فى شيء كهذا » !.. وبالفعل سكتت أكثر من عشر سنوات كبر فيها أولادنا .. واستشهد شقيقها فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .. وفى ذات يوم قالت لى وهى تبتسم : « ما هى الآن أخبار الشابة الشقراء ؟... وقد كنت قد نسيت ذلك .. وتلك الشقراء التى كانت مستشرقة أو صحفية أو شيئا من هذا القبيل .. وعجبت أنها كتمت ذلك فى نفسها طوال تلك السنوات ... ولكنى لا أنسى لها موقفها يوم تعرضت أنا لهجوم عنيف فى الصحف ، وكان التليفون يدق باستمرار من معارفها يسألون عن أخبارى وهى تتظاهر بعدم الاهتمام ، إلا أنها كانت تأتى بهذه الصحف وتقرأ ما فيها من هجوم وشتائم ثم تخفيها عنى .. حتى لا تزعجنى — وكان الرئيس عبد الناصر هو الذى انفعل وغضب وعجب كيف يهاجمون كاتبا مثلى لا يستحق هذا الهجوم . وأبدى رأيه بأن قلدنى أكبر وسام فى الدولة .. فسكتت الحملة بل أقبل مدبروها يهنئوننى !.. ويوم تحدد موعد المقابلة مع عبد الناصر لتسلمى الوسام .. قالت لى زوجتى وهى توصلنى

إلى الباب : « مع الشكر للرئيس إياك أن تنحنى له !.. » فتذكرت ذلك ونفذته عندما قابلته ... ومع ذلك بعد أن مات عبد الناصر وسمعت بأنى كتبت « عودة الوعى » وقيل إنه هجوم عليه وكانت هى على فراش المرض ، همست بصوت ضعيف لا أكاد أسمعه تعبر عن استنكارها لما كتبت ، ولم تكن فى حالة أشرح لها فيها السبب وهو تمزقى بين الوفاء والوطنية .. وعدم احتمالى أن أرى فى مجلس نوابنا رقصا ونحن فى كارثة الهزيمة !.. ولم تكن حياتى الزوجية لها ميسرة .. فأنا زوج من طراز أزواج القرن التاسع عشر .. لا اختلاط .. ولا خروج لزوجتى معى .. وأكثر وقتى وحدى فى حجرتى الخاصة مع كتبى وأوراقى .. أما أولادى الأربعة فقلما أكون بينهم . وأقول الأربعة لأنى لم أفرق بين أولادى من زوجتى وأولادها من زواجها السابق وهما بنتان لطيفتان ... ولم يكن الأمر مجاملة منى لزوجتى بل كان ذلك شعورا طبيعيا منى ، لأنى بين نفسى والله تعالى كنت أدعو هامسا بدعاء واحد أن يحرس لى أولادى الأربعة . وهؤلاء الأربعة أنفسهم مرتبطون فيما بينهم برباط شعورى طبيعى من الحب كخير ما يكون الرباط الوثيق بين الأشقاء المتحابين .. وكذلك معاملتهم معى وحبهم لى كأب للجميع .. وهذا أيضا من فضل ربى ، وإلهامه الأم والزوجة الصالحة حسن التنشئة لأولادها وسلامة التوجيه .. ومع ذلك لم أخرج أنا عن طبيعتى الصارمة التى فى صرامتها تشبه طبيعة والدى فى صرامتها .. فقد كان ابنى يشكو إلى والدته قائلا لها : لماذا لا يلاعبنا أبونا كما يفعل خالى الدكتور لطفى مع أولاده .. إنهم يتسلقون على أكتافه وهو يجرى خلفهم .. أنستطيع نحن أن نفعل ذلك مع أبينا ؟.. فكانت أمهم تفهمهم أن أباهم مشغول فلا تزعجوه .. إلى أن سألها إسماعيل ابنى يوما قائلا لها : تصورى أن أبى يسألنى فى أى سنة أنا فى مدرستى ؟ إنه يجهل كل شىء عن حياتى المدرسية ! فكانت أمه تهون عليه وتقوم عنى بكل مطالب ومشاكل الأولاد .. لم أشعر بمتاعب أو مسئوليات للأولاد ولا للزوجية .. كان أصدقائى يتراهنون على أنى لن أمكث فى الزوجية غير شهور قليلة ثم أتخلص منها وأؤلف كتابا بعنوان : « هكذا تزوجت ؟ » وربما جال ذلك بخاطرى فعلا .. ولكن زوجتى لم تعطنى هذه الفرصة .. ولم ترتكب الخطأ الذى يبرر هذا الإجراء .. ولذلك مرت الأعوام

والزوجية باقية ومستمرة فى طريقها الطبيعى ... كانت تحدث بالطبع خلافات عائلية عادية من وقت لآخر .. ولكن الزوجة العاقلة كانت تحلها بهدوء لا تحشر أحدا من أهلها فيها وتحرص على أن تخفيها عن الجميع .. لم يحدث يوما أن تركت بيت الزوجية غاضبة ولو لساعة واحدة .. وقد حدث مرة أن غضبت أنا وأخذت حقيبتى لأخرج وأقيم فى فندق فجرت خلفى وأخذت منى الحقيبة وأعادت إلىّ هدوئى .. وهى التى وضعت تقليدا سرنا عليه سنوات إلى أن رقدت مريضة : هو أن توصلنى إلى باب الخروج عند مغادرتى البيت كل صباح بقبلة .. وعندما يتصادف الخروج فجأة بدون هذا الإجراء كانت تتصل بى بالتليفون لنحقق هذا التقليد اليومى تليفونيا .. ومع ذلك لم يكن زواجنا عن حب .. ولم تسمع منى أبدا كلمة حب .. وكانت تعرف ذلك .. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذى يسخطنى على هذا الزواج . وكنت أشكو إلى ربى قائلا : لماذا يا ربى وأنا الذى أكتب كثيرا عن الحب تجعلنى أتزوج عن غير حب ؟.. إلى أن وصلت إلى الاقتراب من حكمة الله .. وقرأت الآية التى تقول : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ صدق الله العظيم ... حقا إن الذى بيننا هو « المودة والرحمة » ... والله تعالى لم يقل « وجعل بينكم الحب والهيام .. » .. لماذا ؟.. لأن الحب أو الهيام هو الزائل .. وكم من زواج بنى على الحب والغرام فتغير واشتكى الطرفان أو على الأقل الزوجة أن العاطفة المتأججة أيام الخطبة أو شهر العسل قد هدأت .. ولو تأملوا قليلا حكمة الله لأدركوا أنها لم تنطفئ ولكنها تحولت إلى العاطفة الأبقى والأثبت وهى « المودة والرحمة » . ولإدراكى لحكمة الله فى هذه الآية ، وأنه اختار لى فى هذه الزوجية الهادئة العاطفة الباقية الثابتة التى ذكرها فى قرآنه الكريم .. هدأت نفسى واستقبلت بالرضا حياتى هذه « الزوجية المبنية على حكمة الله » . وأخذت أرى أن الله قد حبانى باختياره هو لى هذه الزوجة الملائمة لى ، فقد طغى على تفكيرى أمر استبد بى : وهو السفر إلى باريس مرة أخرى ونحن على أبواب الستينات كما سافرت أول مرة فى العشرينات لأجدد إلهامى الفنى وأكتب عملا كبيرا .. وسعيت للالتحاق باليونسكو .. ومعنى ذلك أن أترك زوجتى وأولادى لمدة

سنة على الأقل .. وعلى الرغم مما فى ذلك من مشقة للزوجة والأسرة إلا أنها وقفت إلى جانبى وتوسلت إلى الله بدعواتها أن يحقق لى ذلك .. وسافرت بمفردى .. لأتفرغ لعملى الأدبى والفنى .. ولم أكن متأكدا من السفر .. ولكنها بشفافية روحها أخبرتنى ذات صباح أنى سأسافر يوم كذا سنة كذا . وكان بالضبط يوم ٥ مارس ١٩٥٩ كما قالت هى تماما ..وكثيرا ما كانت ترى وتتنبأ بأشياء وأفسرها أنا بأنها شفافية روح : لأنها كانت عميقة الشعور الدينى والإيمان بالله .. كثيرة القراءة فى القرآن والكتب السماوية (الكتاب المقدس المجلد بعهديه القديم والحديث أى التوراة والإنجيل) .. وفى أوروبا تسأل عن بيوت الله فيدلونها على الكنيسة فتدخل وتضىء شمعة للعذراء وتدعو الله فى خشوع .. وهى حريصة على الشعائر وخاصة « الزكاة » وكان اعتمادى عليها فيها .. وخاب أملى فى باريس . ولكن زوجتى آزرتنى برسائلها .. وكدت أتم سنة . وفى آخرها اقترحت عليها أن تلحق بى فى باريس لتشاهدها .. وجاءت وكانت من أجمل أيامنا هناك . وظهرت لى زوجتى فى صورة لم أكن أتوقعها منها .. فلم تكن المرأة المصرية التى كانت تصور عادة باللخمة أو التفاهة .. بل على العكس ذهبت معى إلى متحف اللوفر وجعلت تفحص الصور بكل اهتمام وصبر وتلح على البقاء طول النهار .. وذهبنا إلى دار الأوبرا حيث شاهدت أوبرا « فاوست » المأخوذة عن « جوته » وهى عميقة .. كما شاهدت معى فى الكوميدى فرانسيز مسرحية من أصعب المسرحيات وهى « الحلم » لسترندبرج ... وشعرت أنا نفسى بشىء من الإرهاق فى متابعتها وما أن جاءت الاستراحة حتى أردت الانصراف كى أنام .. أما زوجتى فقالت : ألا نبقى لنتابع القسم الباقى ؟.. كانت مستمتعة أكثر منى مع صعوبة مؤلف مثل « سترندبرج » ! وكانت تتحرك فى أرجاء باريس وكأنها تعرفها من سنوات .. وجاء الصيف ورأينا أن نصعد إلى جبال الألب . ونزلنا فندقا تشرف فيه حجرتنا من جهة على الجبل بقمته المكسوة بالجليد ومن الجهة الأخرى على غابة خضراء يمرح فيها بقر فى رقابه أجراس صغيرة .. وجاء يوم ٦ يونيه وهو يوم زواجنا ... فأردت أن أسرها وأحتفل بهذا اليوم وكان يوافق ربع قرن على هذا الزواج . وحادثت فى ذلك مديرة الفندق فاقترحت أن تعد « تورتة » مكتوبا عليها

« ربع قرن زواج » ، وفى الغداء قدمت هذه التورتة وكلفنا الفندق أن يقطعها أجزاء يقدم إلى كل نزيل من نزلاء الفندق نصيبا عند الغداء . وسر النزلاء بذلك ونهضوا فى طابور يقدمون إلى زوجتى الشكر والتهنئة .. ومن بينهم شيخ أمريكى ومعه زوجته .. أعلنوا أنهم هم أيضا سيقلدوننا ويحتفلون بمرور ثلاثين سنة على زواجهم .. كانت زوجتى سعيدة بذلك .. وكانت أول مرة تجد منى هذا الاهتمام بها .. وأنا أشكر الله الذى هدانى إلى حكمته .. وإلى آيته الكريمة عن « المودة والرحمة » أبقى عاطفة وأثبت دعامة للحياة الزوجية ..

عيد الزوجية

عندى اقتراح : على غرار عيد الأم حبذا لو أنشئ « عيد للزوجية » يتبادل فيه الزوجان التهنئة بمرور الزمن الذى مضى على الزواج . ويقدم فيه كل طرف للآخر ولو زهرة ويحتفل فيه الطرفان بهذه المناسبة على مائدة عليها « تورتة » عليها تاريخ عام الزواج ..

الوفاة

وجاء يوم الوفاة : ٢٩ إبريل ١٩٧٧ الموافق ١١ جمادى الأولى ١٣٩٧ الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وكان يوم جمعة وكنت أنا فى الخارج مع أصدقائى .. وقدموا إليها الغداء فرفضت تناوله حتى أعود وترانى .. وعدت فى الساعة الثالثة .. فطلبت الغداء وأكلت .. ثم همست فى أذنى : « أنت حاتحزن على .. » ثم شهقت مرتين : « آه .. آه .. »وأسلمت الروح ... ماتت وهى غير واثقة من شعورى نحوها ... فهى طوال حياتنا الزوجية لم تسمع منى لفظة « حب » ... وبعد أيام

نهضت بنتى « زينب » من نومها وهى ترتعد قائلة أنها رأت أمها رؤية العين تظهر لها ثم تركتها واتجهت إلى حجرتى قائلة لها إنها تريد أن تلقى على نظرة .. لأنها عرفت الآن أنى أحبها ...

خطاب منها

عندما سافرت إلى باريس مندوبا دائما لمصر فى اليونسكو يوم ٥ مارس ١٩٥٩ لم تمض أسابيع قليلة حتى وصلنى منها الخطاب الآتى .. وهذا نصه :

القاهرة فى أول أبريل ١٩٥٩

زوجى العزيز ...

لا تعلق أهمية على تاريخ الخطاب . فبالرغم من أن اليوم أول إبريل إلا أن كل ما سأقوله حق وصدق .. لقد اتفق الناس على الكذب أول إبريل وأختلف أنا عنهم اليوم .. وصلنى خطابك العزيز أول أمس .. وكنت كل يوم أمر على صندوق البوستة وأفتحه وأحيانا أكون خارجة فأفتحه ، وأعود بعد قليل وأنا متأكدة أن لا شىء بداخله فأفتحه يدفعنى أمل واحد هو خطاب منك .. أصبحت حياتى وأعصابى متوقفة على شىء واحد : خطاباتك ..إن وصول خطاب منك فرحة كبيرة .. نلتف أنا والأولاد حوله ونقرأه بسرور بالغ .. وأسرح أحاسب نفسى كيف ارتضيت أن أتركك تسافر ؟. وكيف تم هذا وأنا بهذا الشعور ؟. أعود فأقول إنك لم تتركنا لتحقق رغبة عندك وحدك بل هى رغبتنا وإحساسنا جميعا نحوك ونحو آمالك .. كل ما أرجوه أن تعود إلينا منتصرا وبذلك أكون قد أكملت رسالتى كزوجة محبة مخلصة بجوارك .. أما من ناحية الإشاعات فآخر إشاعة أنك موجود فى مصر ونازل فى بنسيون وأن بيننا سوء تفاهم .. تصور ما يقوله الناس ؟ هذه المهاترات ليس لها جواب عندى .. كل ما ساءنى فى خطابك أنك وجدت باريس قد تغيرت ولذا أخشى أن تكون قد

تضايقت .. وعشمي أن يكون عملك محببا لنفسك فأنت لم تسافر إلى باريس للفسحة بل لهدف معين .. وكلنا فى غاية الشوق إليك .. وأخيرا قبلاتى التى لا تعد ولا تحصى ...

زوجتك المخلصة ـــ س ....

التنبؤ بالوفاة

لى صديق شاعر هو « عبد الرحمن صدقى » فجع بوفاة زوجته وأنشأ قصيدة هزتنى .. ولم أكن أنا قد تزوجت بعد .. فبعثت إليه بهذه الرسالة التى نشرها فى كتابه « من وحى المرأة » وهذا بعض ما جاء فى رسالتى إليه رحمه الله هو أيضا :

« عزيزى الأستاذ عبد الرحمن : لقد أحزنتنى وأبكيتنى بقصيدتك المنشورة فى مجلة « الثقافة » ولكنى أكتب إليك لأنى أبكى حالى المماثل لحالك : فقولك :

كان لى فى أخريـــــات   العمـــــر بيت فعدمتـــــه
سنـــــوات أربـــــع أم   كان ذا حلمـــا حلمتـــــه
فما لى إلى الأسفار بعدك نهضة   ولا متعة فيمـا يشوق ويونـق
وكنت جعلت القفر حولى جنـة   وقام من الفـوضى نظـام منسق

إلى الوحدة الباردة مرة أخرى وقد ذقت دفء الحنان !.. إلى فوضى الحياة من جديد وقد ولى الشباب !.. اللهم الصبر لك !.. إنى أشعر بما أنت فيه وأحس ما تحس وأرثى لك ولنفسي في موقفك وأسأل السماء الرفق بك ...

توفيق الحكيم

* * *

خطرات فى الدين

على أحد آطام « يثرب » نظر يهودى إلى السماء ذات ليلة ، ثم صاح صيحة مدوية : « طلع الليلة نجم « أحمد » .. أحقا لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك الليلة ؟.. إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة ، يشع نورا من بداية الكون ، لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية !. نجم أحمد هو الحق .. والحق لا يبدأ ولا ينتهى .. ولا يظهر ولا يختفى .. إنه موجود .. إذن ما الإسلام ؟ وكيف ظهر بظهور « محمد » ، والمسيحية بظهور « المسيح » واليهودية بظهور « موسى » ؟ هنا لزم التفريق بين الحق و « ثوب الحق » .. بين المعنى والأسلوب . ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته .. كذلك كل دين من الأديان السماوية ، التى تتحد فى الجوهر .. وهو مصدر النور الإلٰهى « الله » .. وتختلف فى المصباح الذى يشع من خلاله النور ..

أيها الإنسان .. إن الدين هو الذى يرفع بصرك إلى أعلى .. إلى أعلى من أرضك ومن فمك .. وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان .. وإذا ارتفعت إلى حيث تدرك وجود « الله » فأنت سيد الكائنات ..

كل شىء قد يعرفه الحيوان إلا « الدين » .. لو عرفت جماعة من الحيوان يوما معنى الدين لأصبحت فى الحال بشرا ساجدين .. وإن كان كل شىء فى الكون يسجد لله ، فهو سجود طبيعى تلقائى . أما سجود الإنسان فهو شىء آخر : سجود بالوعى والفكر والإيمان .. ما من شىء نفخر به نحن الآدميين إلا أننا نسجد من أجل فكرة عليا ، جاءتنا من السماء ... ونتحمس من أجل معنى مقدس .. وتعرف قلوبنا ما هو « الإيمان » ..

إن الله تعالى يريد أن تعيش الأحياء طبقا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء ، بما هيأه لها من مناعة طبيعية أو

مناعة اكتسابية .. والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والمعنوية ..

ولما كانت غاية الدين عند البشر هى توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام له صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة .. وجاء عن أبى هريرة هذه العبارة الرائعة : ثم خلق الله تعالى العقل فقال الجبار : « ما خلقت خلقا أعجب منك » .. إن الله لم يخلق هذا العقل العجيب عبثا .. بل خلقه ليرقى به الإنسان إلى حيث يدرك ما كتب له إدراكه من قوانين الكون . وفى هذا الإدراك إرادة الله فى أن يكون الإنسان أرقى مخلوقاته على هذه الأرض ، لأن فى هذا الرقى والإدراك استمرار لبقاء الإنسان فى مواجهة الأخطار التى تهدد بقاءه . والله يخلق الأنواع ويخلق معها أدوات مقاومتها ووسائل بقائها.. ولذلك جعل الله تعالى أهم دعوة للإنسان هى « التفكير » . وقال فى كتابه الكريم ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ .

وقال ﷺ : « لا عبادة كتفكر » ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

الماء الحى

عام ١٩٤٨

« .. وكان لابد له أن يجتاز السامرة .. فأتى إلى مدينة فى السامرة يقال لها « سوخار » بقرب الضيعة التى وهبها يعقوب ليوسف ابنه .. وكانت هناك بئر يعقوب .. فإذا كان « يسوع » قد تعب من السفر . جلس على البئر .. فجاءت امرأة من السامرة لتستقى ماء .. فقال لها « يسوع » :

— أعطينى لأشرب ...

لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاما ..

فقالت له المرأة السامرية :

ـــ كيف تطلب منى لتشرب ، وأنت يهودى ، وأنا امرأة سامرية ؟

لأن اليهود لا يعاملون السامريين ..

أجاب « يسوع » وقال لها :

ـــ لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك « أعطينى لأشرب » لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا ..

فقالت له المرأة :

ـــ يا سيد .. لا دلو لك . والبئر عميقة . فمن أين لك الماء الحى ؟..ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها هو وبنوه ومواشيه ؟!..

أجاب « يسوع » وقال لها :

ـــ كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا ، ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه ، يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع إلى حيوات أبدية ..

درس « يسوع » ليس للأفراد وحدهم .. بل للدول أيضا .. هذه الحروب التى لا ينطفئ سعيرها .. إنما هى علامة عطش !.. متى تؤمن الدول القوية أن هذا العطش لا يطفئه الطغيان ولا السيطرة .. كل دولة تشرب من بئر « السيطرة » تعطش أيضا .. أيتها الدول الكبرى لا تغترى ولا تظنى « القنابل الذرية » تطفئ عطشك .. بل ثقى أن الذى يطفئه إلى آخر الأزمان هو ذلك الماء الحى ، الذى تحدث عنه السيد المسيح ..

(من فن الأدب ١٩٤٨)

شبح الحروب

عام ١٩٧٧

خوفنا الحاضر من شبح الحرب دفع هيئة « اليونسكو » فى باريس إلى دعوة جماعة من مفكرى العالم حوالى عام ١٩٧٧ إلى اجتماع يتبادلون فيه الآراء لدرء هذا الخطر

الذى يهدد النوع البشرى كله .. فالحرب اليوم بأسلحتها الحديثة الرهيبة معناها الفناء الشامل .. والسلام هو الحل الوحيد .. وكنت من بين المدعوين .. فألقيت كلمة قلت فيها :« إن السلام أصعب من الحرب ... لأن الحرب غريزية .. ما أن نشعر بتهديد ما حتى تستيقظ فينا غريزة حب البقاء ، فننهض للكفاح .. أما السلام فهو ينبع — لا من الغريزة — بل من الحكمة .. والحكمة هى صفة عليا خاصة بالإنسان .. إن الحيوان لا يعرف غير الحرب فقط .. وعندما لا يكون أمامه حرب ، فإنه ينام ، أو يرقد بلا حراك .. ولا يمكن ن يتصور أن سكونه هذا بغير حرب يسمى سلام .. أما الإنسان الذى يسمى عدم الحرب بالسلام ، فإنه يحاول أن يطيل هذه الفترة بوسائل مقصودة .. وإذا كانت الحرب يعدها العسكريون ، فإن السلام يعده السياسيون .. وفى بعض الأحيان يعمل السياسيون فى هذين الاتجاهين المتعارضين : يجهزون للحرب ، ويعدون للسلام .. هنالك صنف من الناس يعملون فقط فى اتجاه واحد نحو السلام فقط .. هؤلاء هم المفكرون أو الحكماء .. وهذا هو سبب اجتماعنا هنا : للكلام فى « السلام » وحده .. وعلينا أن نكتشف ونحلل العناصر التى تهدد السلام .. والعنصر الهام فى رأيى هو « الخوف » .. فالخوف عند الإنسان كما عند الحيوان هو ينبوع العدوان .. هناك أيضا ينبوع آخر .. وبالأخص عند الحيوان المفترس هو : الجوع .. فهذا الحيوان عندما يجوع يصبح خطرا .. وهذا ما يحدث عند الإنسان أيضا .. فالأمة إذا جاعت لا تجد أمامها من طريقة سوى العنف .. الحرب .. إذن الخوف والجوع هما مصدرا الحرب عند الحيوان والإنسان .. والإنسان والحيوان عندما تكون المعدة لكل منهما ممتلئة فإنه يكون مسالما .. ومع ذلك فهناك نوع ثالث للحروب .. نوع لا يعرفه الحيوان .. فهو من خصائص الإنسان وحده .. إنه النوع الفكرى : الأيديولوجية .. فالإنسان يريد أن يفرض أفكاره على الآخرين .. وأحيانا بالقوة .. والتاريخ يذكر لنا تلك الحروب الرهيبة التى كانت ترمى إلى فرض الأديان والمذاهب من ناس على ناس .. وحتى وقتنا الحاضر نجد خطر الحرب يمكن أن ينفجر فى أية لحظة بين شعوب بسبب الاختلاف الأيديولوجى .. فلم تزل مع الأسف هذه الفكرة المجنونة موجودة : وهى أن العالم يمكن أن يعيش بأيديولوجية

واحدة .. للشاعر المعاصر « بول فاليرى » كلمة حكيمة : هى قوله : « فلنثر أنفسنا بثراء مفيد من خلال خلافاتنا » .. إننا نختلف لأن ما عندى يختلف عما عندك .. فلماذا لا يضيف كل منا ما ليس عنده إلى ما عنده ؟ فتكون نتيجة الإضافة ثراء ؟!.
لقد كتبت أنا مرة هذه العبارة « يجب أن نضع فى مكان كلمة « نفرض » كلمة « نتبادل » .. إن تبادل الأفكار فيه « جمع » .. بمعنى أن وضع رأى إلى جانب رأى هو « جمع » .. أما فرض الفكر الواحد فهو « طرح » .. بمعنى أن إلغاء رأى بفعل طغيان رأى واحد فقط فهو : « طرح » ..

كذلك يجب أن نستبعد عن الأذهان وخاصة أذهان أطفالنا ما يوحى بالعنف والحرب مثل لعب « المدافع والسيوف والدبابات » ونحو ذلك .. وأن نراجع كتب التاريخ فنضع الحروب فى أماكن ثانوية ، ونبرز فى أماكن الصدارة قيمة العلم ، ونماذج الأبطال ليس رجال السيف بل رجال الروح .. وكل ما يساعد على سمو الفكر ويكفل للإنسانية السلام والهناء ..

(مطبوعات اليونسكو ١٩٧٧)

غلام القبطية

عام ١٩٣٦

كان رسول الله ﷺ فى حى بالمدينة ، بين رهط من الناس ، عندما جاء « أبو رافع » وهو يجرى ويلهث ليقول له : « يا رسول الله .. أبشر .. أبشر .. ولدت لك مارية القبطية الليلة غلاما .. فنهض النبى معلنا : « أيها الناس !.. ولد لى اليوم غلام .. وإنى سميته باسم أبى إبراهيم » ..

وفى ذلك الوقت كانت عائشة فى مسكنها حزينة تقول لأمها : « وددت والله أنى أنا أم هذا الغلام !.. لقد حجب رسول الله « مارية » .. نعم إنها قد ثقلت على نسائه .. وتنافست فيه نساء الأنصار أيتهن ترضعه !.. وتدخل وصيفتها « بريرة »

تعلن : رسول الله جاء .. ويدخل النبى فرحا يحمل ابنه إبراهيم بين ذراعيه .. ويقول : يا عائشة .. انظرى .. انظرى .. انظرى إلى شبهه بى !.. فتقول عائشة : ما أرى شبها ..

فيقول النبى : ألا ترين إلى بياضه ولحمه .. فتقول عائشة : من سقى ألبان الضأن سمن وابيض ..

وينظر النبى إلى ابنه قائلا : أما دريت يا عائشة ؟ لقد جاء إلى « جبريل » فقال : « السلام عليك يا أبا إبراهيم » !.. ألا يسرك هذا ؟.. مالك يا عائشة ؟.. أغرت ؟.. إنك والله قد غرت ..

ومضت أيام .. وبينما كانت عائشة وحدها فى مسكنها دخلت عليها بريرة تجرى وهى تلهث قائلة : أجاءك الخبر ؟.. لقد مات إبراهيم !.. فنهضت عائشة وهى تقول فى فرح : غلام القبطية ؟!..

وكان النبى فى « البقيع » ومعه الفضل بن عباس وأسامة بن زيد يحملان جثة إبراهيم وخلفهم « مارية » تبكى . ونساء من الأنصار والمهاجرين وحفار يحفر قبرا .. والنساء يصحن : « إن له إن شاء الله مرضعا فى الجنة .. » .. والنبى على شفير القبر يسوى بأصبعه الجدث : أرى فرجة فى اللحد !..

الحفار — أما يا رسول الله لا تضر ولا تنفع ..

محمد — أما إنها لا تضر ولا تنفع .. إن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه ..

الفضل — (ينظر إلى التراب وقد أهيل على إبراهيم) رحمة الله على إبراهيم !.. لو عاش لكان صديقا نبيا ..

محمد — لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى !.. (وتسيل الدموع من عينى النبى ..)

أسامة — أتبكى يا رسول الله ، وقد نهيت عن البكاء ؟!..

محمد — إنما أنا بشر .. تدمع العين ويخشع القلب .. ولا نقول إن شاء الله إلا ما

يرضى الرب ، والله لولا أنه أجل معدود ، ووعد صادق ، ووقت معلوم ، وأن آخرنا لاحق بأولنا ، لجزعنا عليه جزعا غير هذا .. إنا عليك يا « إبراهيم » لمحزونون !..

(كتاب محمد ١٩٣٦)

قوة الروح

عام١٩٤٧

قالت لى عصاى : هل تعتقد حقا أن الروح يمكن أن يكون لها أثر فعلى ؟.. وأن القيم الروحية يمكن أن تكون مصدر سلطة فى بلد من البلاد ؟..

قلت : أومن بذلك كل الإيمان .. على شرط أن تتجلى الروح بنورها وحده .. لا ببريق زينة مادية .. وأن تعتمد القيم الروحية على جوهرها فقط .. لا على مظاهر قوية دنيوية ... إن اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة .. وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هيبة وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه ، لهو اليوم الذى يمكن فيه إقناع الناس بوجود « الروح » .. ذلك أن الناس لا يرون أمامهم غير السعادة واللذة اللتين يأتى بهما الجاه والمال ... فهم إذن معذورون إذا اندفعوا نحو هذا النهر الأصفر ، يعبون منه ما استطاعوا ، ليرووا عطشهم الذى لن يروى .. لأنهم يجهلون وجود البئر بذلك الماء الحى الخفى ، الذى لا بريق فيه ، ولكن فيه الرى ... ما من مثل يثبت للناس أن رجلا بغير قوة المال والجاه استطاع أن يكون سعيدا وقويا ... خلا الأنبياء والرسل ، وبعض الأفذاذ أمثال « غاندى » .. وهنا قالت عصاى : يكفى أن ينهض رجل واحد .. رجل روح حقيقى لقلب التاريخ ... أوَبعد هذا نشك فى قوة الروح ؟!..

(عصا الحكيم عام ١٩٤٧)

الزوجان والشيطان

عام ١٩٥٦

فى حجرة بسيطة الرياش .. فى زاوية منها مكتب تكدست فوقه الكتب والمجلدات .. وإليه جلس فيلسوف يقرأ ويفكر فى هدوء الليل .. وفجأة سمع طرقا خفيفا على الباب .. ويظهر على العتبة شخص ، ما أن وقع نظره عليه حتى عرفه وقال : الشيطان !.. نعم ثيابك الحمراء . وقرنيك الصغيرين . وأنفك الطويل !.. فقال الشخص نعم . أنا بعينه . وبالصورة التى تعرفونها . وصنعتها لكم خصيصا . ولو أنى لست كذلك ... ولكن كذبة مشهورة أجدى من حقيقة مستورة !..

الفيلسوف : طلباتك ؟..

الشيطان : أنت فيلسوف ... ومفكر ... فكر لى ...

الفيلسوف : حالا .. (**ويضع رأسه بين كفيه**) ها أنذا أفكر ...

الشيطان : أرجو أن يتمخض ذهنك الجبار عن الفكرة الفعالة ...

الفيلسوف : وجدتها ... وجدتها ...

الشيطان : وجدت ماذا ؟، إنك لم تعرف منى ما هى المسألة !..

الفيلسوف : فعلا ... كان يجب أن أسألك قبل أن أفكر ...

الشيطان : إنك فكرت قبل أن تسأل ...

الفيلسوف : لا تؤاخذنى ... غلبت عندى العادة .. نحن معشر الفلاسفة نفكر طويلا ثم ينتهى تفكيرنا إلى سؤال ...

الشيطان : لا يا سيدى ... أرجوك ... لا تضيع وقتى ... إنى جئت إليك فى هذه الساعة من الليل كى تفكر لى تفكيرا ينتهى إلى حل ...

الفيلسوف : فلنبدأ إذن بالسؤال : ما هو الحل ؟..

الشيطان : أعرف أولا ما هى المسألة ؟...

الفيلسوف : وما هى المسألة ؟؟...

الشيطان : الحرب .

الفيلسوف : (**فى دهشة**) الحرب ؟!.. وهل الحرب مسألة تهمك ؟..

الشيطان : إنها مسألة حياتى أو موتى ... الحرب القادمة ستدمر الدنيا بمن فيها .. أى أنها القيامة .. ووجودى مؤجل إلى يوم القيامة ، كما أعلن الخالق سبحانه وتعالى ... ولذلك لم ألجأ إلى رجال حكم وجيوش وسياسة .. لأن هؤلاء هم صناع الحرب . ولم أجد أمامى من أذهب إليه لمنع خطر الحرب سوى فيلسوف ...

الفيلسوف : وأنا عندى خبرة بالحرب ... لأنى متزوج ...

الشيطان : وهل أنت متزوج ؟!

الفيلسوف : طبعا ... ولذلك أنا فيلسوف ... لأن كل زوج قضى فى الزوجية عشرة أعوام فما فوق ينقلب تلقائيا إلى فيلسوف ، دون تعلم حرف فى الفلسفة !.. (**يفتح فجأة باب الحجرة وتندفع منه امرأة ...**)

المرأة : (**صائحة**) أما كفى قراءة وكتابة ؟. هذا النور الكهربائى فى الفاضى ؟!.. تبقيه طول الليل ... أهو بنقود أو بغير نقود ؟.. ألا أدفعه كل شهر من مصروفى !..

الشيطان : (**هامسا**) من حضرتها ؟..

الفيلسوف : زوجتى ... المصونة والجوهرة المكنونة !..

الشيطان : خذ راحتك معها ... إنها لن تبصرنى ولن تسمعنى ...

الفيلسوف : (**لزوجته**) طلباتك ؟...

الزوجة : طلباتى ؟.. أنت تعرفها وتتقن تجاهلها .. ولكنى أقسمت أن أحققها كاملة .. شئت أو كرهت !..

الفيلسوف : بالقوة ؟..

الزوجة : أنت لا تريد أن نسوى أمورنا بالوسائل السلمية !..

الفيلسوف : أنا ؟!.. أنا الرجل المسالم ؟!

الزوجة : فى الظاهر ... ولكنك فى الباطن رجل مشاكس ... تريد فرض رأيك ...

الفيلسوف : ألا تريدين أن يكون لى فى البيت رأى ؟...

الزوجة : لا يا سيدى ... رأيك تضعه فى كتبك ، أما فى البيت فتضع نقودك !..

الفيلسوف : نقودى ؟! ألست أنت التى خطفت من يدى محفظة النقود هذا الصباح ، بعد أن خدشتنى أظافرك الطويلة الملونة ، وذهبت إلى الحوانيت فاشتريت لنفسك الجوارب والعطور ، وعدت دون أن تشترى لزوجك المسكين قميصا واحدا يعوضه عن قمصانه القديمة الممزقة !..

الزوجة : أرأيت ؟ كل ما تفكر فيه هو نفسك .. وكل ما تتمناه هو أن تسمم حياتى ...

الفيلسوف : وأنت ؟.. هل أضربت يوما واحدا عن تنغيص حياتى بطلباتك ولسانك !..

الزوجة : ولسانك أنت الذى يقطر بالسم !.

الشيطان : (**هامسا للفيلسوف**) أهذا هو الزواج ؟!..

الفيلسوف : نعم .. « عقبال عندك » !..

الزوجة : عدت تحرك شفتيك ؟..

الفيلسوف : أتريدين التحكم أيضا فى شفتى .. أليس لى الحق أن أكلم من أشاء ؟!..

الزوجة : ليس فى الحجرة هنا غيرى ...

الفيلسوف : من أدراك ؟.. أتظنين أنه ليس فى الكون غيرك أنت ؟..

الزوجة : وما دخل الكون ؟ إنى أتكلم عن هذه الحجرة ؟ أفيها أحد ثالث ؟..

الفيلسوف : بدون شك .

الزوجة : ولماذا تبصره أنت ولا أبصره أنا ؟!..

الفيلسوف : وهل ذنبى أن أبصر أنا ما لا تستطيعين أنت أن تبصرى ؟!

الزوجة : قلت لك ألف مرة خاطب بفلسفتك الفارغة هذه الناس فى الخارج ، أما هنا فى البيت فخاطبنى بالعقل ..

الفيلسوف : وما هو العقل عندك أيتها المرأة ؟!..

الزوجة : أرأيت ؟.. كل همك أن تشعرنى أن تفكيرك هو فى مستوى أرفع من تفكيرى .. وأنك ترى ما لا أرى .. تريد أن تسيطر علىّ بفكرك .. ولكنك لن تسيطر علىّ أبدا .. إن لى شخصية لا يمكن أن تنطوى تحت شخصيتك ..

الفيلسوف : أهذه الفكرة هى التى تثيرك ؟!..

الزوجة : بكل أسف نعم .. وسترى الآن من منا الذى سيخضع الآخر .. إنى أبصر الآن أكثر منك الشخص الذى معنا فى هذه الحجرة ..

الفيلسوف : تبصرينه ؟.. من هو ؟

الزوجة : الشيطان !..

الشيطان : (**هامسا**) كيف شمت رائحتى ؟..

الزوجة : (**لزوجها**) ألا تعلم المثل : ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان !.

الشيطان : (**هامسا**) ليس دائما .. إنى هنا الليلة لسبب آخر ..

الزوجة : (**لزوجها**) والدليل على وجود الشيطان بيننا الآن هو أنه يوسوس لى أن أختطف هذه المحبرة التى أمامك وأقذف بما فيها على رأسك !..

الشيطان : (**هامسا للفيلسوف**)ياللظلم ! أتصدق أنى أحرضها على شىء كهذا ؟!..

الفيلسوف : بل صدق .. إذا لم تسلم بدون قيد ولا شرط !.. (**تهز المحبرة فى يدها**)

الفيلسوف : (**للشيطان**) ما رأيك ؟..

الشيطان : تسألنى رأيى ؟!.. وأنا الذى جئت ألتمس رأيك ؟!.. أرأسك هذا هو

الذى سيفكر لى فى منع الحرب !.. (يهرول هاربا بإشارة وداع ..)

(المسرح المنوع ١٩٥٦)

فى الشعر

وإن وراء الحرب منـــــــــى ودونها
مواقــف تنسى عندهـــن التجـــارب
أرى ملء عينـــى الـــردى وأخـــوضه
إذ الموت قدامـى وخلفـــى النـــوادب
ومــــــن شرفى ألا يزال يعيبنـــــــى
حسود على الأمـــر الـــذى هو عائب
ولست أرى إلا عدوا محاربـــــــــا
وآخـــر خير منـــه عنـــدى المحارب

(أبو فراس الحمدانى)

* *

لن ينصر الديـــن الحنيـــف وأهلـــه
مَنْ بعضه عن بعضه مشغـــــــــول
تلهيـــه صلصلـــة العـــوالى كلمـــا
ألهت أولـــــئك قينـــــة وشمول

(ابن هانئ الأندلسى)

أوراق ضائعــة

فى السد العالى : إنى حى

١

أبو سمبل أو خيوط الفجر

رمسيس : كل صباح فى صباح
والنيل ما زال يجرى عند أقدامى الثمان
والشمس تضىء وجوهى الثلاثة
وجهى الرابع طمسته كف الزمان

نفرتارى : أجل يا زوجى الجميل
إنه صباح واحد طويل والشمس تضىء وجوهى الأربعة
بقى لى وجهى الرابع لم يطمسه الزمان
لأنى أختفى تحت سماء ظلك

رمسيس : نعم هى الشمس فى الضفة الشرقية
تبدو من خلال التلال تحمل حنطة من ذهب
ويصيح أول قرد من أعالى معبدى
صيحة النوتى من أعلى الشراع :
سفينة مقبلة فى الأفق
تلمع بالرماح البيض
تهزم القراصنة السود

نفرتارى : وكل شىء من حولنا فى سبات
إلا النيل يغنى وهو يسير
وفى موجاته خلاخيل
ترى كالفضة وهى تلمس أرضنا قرب مواقع أقدامنا

رمسيس : نعم صباح واحد طويل
قائم دائما كالجبل
وأنا وأنت قطعة من جبل
وكل شيء من حولنا يزول

نفرتارى : النيل وحده يسير
حتى وهو يموت
أوزيريس المقطع إربا
كل قطعة فيه تنبت عشبا

رمسيس : من بلاد الشمال
حيث الشمس تترك ذهبها
فوق الرؤوس وتختفى
ومن بلاد الجنوب
حيث يخترق الشعاع العنب
ويلوح بشرة الزيتون
كلهم مقبلون كلهم مقبلون

نفرتارى : يقدمون إليك القرابين
صلوات الإعجاب
تفور كالحباب
فى كؤوس العيون
فى صباح واحد طويل
عمره آلاف السنين

* *

بمثل هذا الكلام كانا يتخاطبان ومنذا الذى يستطيع أن يؤكد أنهما لبثا صامتين طوال هذه القرون ؟! يبدو لى أنهما يعرفان عما حولهما أكثر مما نتصور . لمحت ذلك فى تلك العيون الصخرية . ومنذا الذى يستطيع أن

يؤكد أن العيون الصخرية أقل رؤية من عيوننا الزجاجية ؟!

ما من شك عندى فى أن رمسيس وزوجته يريان كل شيء أمامهما . وإن كنت أشك قليلا فى أنهما يفهمان كل هذا الذى يحدث اليوم قربهما .

إنهما قطعا يريان المراكب تأتى تحمل أفواج المعجبين من الشمال والجنوب . إن الإعجاب بهما شيء مألوف لهما من قديم . سواء يوم كانا يتحركان بالجسم فى كيان من لحم ودم ، أو يعيشان بالروح فى تماثيل ومعابد عبر الأحقاب . إنهما فى كل صورة من صور الحياة موضع إعجاب . هذا ما يعرفانه ويفهمانه جيدا . لكنهما اليوم فى أبى سمبل يشعران شعورا خفيا بشيء غير مألوف . إن الزوار الآن لا يحملان لهما الإعجاب وحده .. فى تلافيف الإعجاب عاطفة أخرى غامضة لا يعرفان بعد كنهها . غير أنها تتراءى أحيانا فى ومضات نظرات غريبة من تلك العيون الزرقاء والخضراء والعسلية والسوداء . ثم ما هذا التهافت والإقبال على هذه الزيارات اليوم بهذه اللهفة وهذه الكثرة ؟!

وهذه البواخر والزوارق .. وهؤلاء العمال والخيام ... وكل هذه الأدوات والمعدات وقضبان الفولاذ وكمرات الحديد ؟! ثم ما خطب القرى المهجورة على الضفتين ، منزوعة النوافذ والأبواب ، قابعة فى صمتها ، كأنها صقور محنطة منزوعة الريش ؟! علامات غريبة لا يفهمان لها معنى ..

أكثر من ثلاثة آلاف عام وكل شيء يسير فى مجراه . فما الذى حدث اليوم ؟ بالطبع حدثت أشياء كثيرة خلال تلك القرون الطوال . فقد دالت دول وجاءت دول وتغيرت الديانات والملل . لقد استعرضا فى كل زمن مختلف الوجوه والسحن . لكن شيئا واحدا لم يتغير : هو شعورهم الراسخ بالاستقرار فى ذلك المكان : « أنا وأنت قطعة من جبل وكل شيء من حولنا يزول » !.. نعم لكن .. ما الذى هز فيهما هذا الشعور الآن ؟! ولنفرض أن العمال هناك تحدثوا بشيء ، فهل من الممكن لهما أن

يفهما المعنى الحقيقى لهذا الحديث ؟ قد يقال إن الإحساس بقرب وقوع شىء خطير أمر طبيعى . وخاصة عند أولئك الذين عاشوا طويلا حياة هادئة رتيبة . وهذا ما بدا فعلا بوضوح على وجه رمسيس . كنت أتأمل كل وجه من وجوهه فى تماثيله العديدة المتشابهة فأرى منه هذا التوقع . وعندما انصرف عنه الزوار خلف الدليل ، يشرح لهم تاريخه وأعماله وانتصاراته ، بقيت أنا وحدى معه وجها لوجه . أسائل نفسى : أقول له أو لا أقول ؟.. وتشجعت وقلت له : « نعم . سيحدث شىء . شىء عجيب لن تصدقه . لأنى أنا نفسى مندهش له ! » ..

وعندما خلا الجو للقراصنة السود ، لصوص النور ، ونامت القردة أولاد الشمس فوق أفريز المعبد فى انتظار سفينة النهار ، لم يغمض لرمسيس جفن . هذا النائم على مجد القدم . بدأت توقظه أصوات تأتى من الشمال ، ضربات تدوى فى رأسه من معاول تشق الصخر فى أسوان . وهمس لزوجته قائلا : « أتسمعين ؟. أتسمعين ؟ » وانطلق شبه تنهد دله على أن نفرتارى لم تكن أقل منه سهدا وقلقا وسمعا .

ومضى يخاطب نفسه : « أين يمكن أن نذهب ؟ أوَ يعقل أن نتحرك من موضعنا بعد كل تلك القرون ؟ والنيل أيضا ؟ حتى النيل ؟! » ولم تكن كلماته مفهومة حتى لنفسه .. ولكن الإحساس الداخلى يتكلم . لكن مهما تذهب بهما الظنون فإن هناك حدا عندهما للتصور . لقد تحققت فى عصورهما القديمة أعاجيب . ولكن فى إطار الطبيعة الموجودة . الجبل هو الجبل . والنيل هو النيل . كل شىء فى موضعه . الإنسان بعبقريته . والطبيعة بجبروتها . كل منهما يعمل فى نطاقه .

الإنسان يقيم المعابد والهياكل . وقد يحاكى الجبل فيصنع الهرم . أقصى قدرته أن يحاكى الطبيعة . ولكن المحاكاة اليوم لا تكفيه . إنه يغير الطبيعة نفسها وفقا لحاجته . فهو يصنع للجبل أقداما كى ينتقل من مكان إلى مكان . وهو يضع حول النيل سياجا ، ويجعله بقرة داخل حظيرة ، تحلب له بالمشيئة . نعم . هذا النيل الهادر فى فيضانه العارم قلبه المصرى الحديث ، حفيد رمسيس ، إلى عصفور وديع مغرد بين قضبان قفص ، يغنى وقتما يراد له بأناشيد الخير والبركة والنماء . لكن هذا لن يمنع رمسيس من الدهشة . وربما الغيرة والغضب والصياح : « أترى النيل قد شاخ حتى

يترك قياده لأولاده هكذا يفعلون به ما يشاؤون ؟ » . لكنه يعلم جيدا أن النيل لا يشيخ . إنه الشباب المتجدد والبعث الدائم . إذن هم الأولاد الذين تغيروا . وقد أدرك النيل الجبار أنه لن يستطيع مع مثل هؤلاء الأبناء أن يسير على هواه . لكن المدهش فى الأمر أن النيل نفسه لم يضق بوضعه الجديد . لقد سمعه يقول هامسا : « حقا . حقا . إنى شاب دائما . هذا صحيح . غير أنى كنت شابا ضائعا . لم تكن حريتى تلك هى الحرية . إنما كانت الضياع . إن الحرية ليست فى مجرد السير على الهوى . الحرية ليست فى تبديد الذات . اليوم أدركت الحرية الحقيقية . هى أن أسير ولا تنزلق منى خطوة فى غير موضعها . هى أن أسيل ولا تضيع منى قطرة فى غير نفع . يا أبنائى شكرا لكم ... شكرا لكم ... » .

٢

أســوان أو إعادة الروح

حوريس : انهض يا أوزيريس
أنا ولدك حوريس
جئت أعيد إليك الحياة
جئت أجمع عظامك
وأربط عضلاتك
وأصل أعضاءك
أنا حوريس الذى يكون أباه
حوريس يعطيك عونا لترى
وآذانا لتسمع
وأقداما لتسير
وسواعد لتعمل

وها هى ذى أعضاؤك صحيحة
وجسدك ينمو
ودماؤك تدب فى عروقك
إن لك دائما قلبك الحقيقى
قلبك الماضى
الميت : إنى حى . إنى حى .

تذكرت هذه الكلمات من « كتاب الموتى » وأنا واقف أتأمل ذلك النصب التذكارى الذى أقيم فى أسوان بمناسبة أول تفجير للجبل . أهو كان تفجيرا للجبل فى ذلك اليوم أو أنه كان تفجيرا للحياة ؟ تفجيرا للروح التى عادت إلى مصر الحديثة ...

وقفت فى ذلك المكان الذى وقف فيه معيد الروح يشعل الشرارة ، واستعدت كلمات حوريس تلك .. وتذكرت عندئذ ــ ويااللدهشة ــ نص كلماتى التى كنت نشرتها عام ١٩٣٨ فى كتابى « تحت شمس الفكر » . إذ قلت فى ذلك الحين :

« إنى دائما أومن بأن مصر لا يمكن أن تموت . لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحد . مكافحة الموت . ولقد فازت مصر ببغيتها وكلما ظن الموت أنه انتصر قام حوريس من أبنائها يصيح : « انهض انهض أيها الوطن . إن لك قلبك دائما . قلبك الحقيقى . قلبك الماضى . » وإذا الموت يتراجع أمام صوت مدو من أعماق الوطن : « إنى حى . إنى حى » .

نعم . هذا نص ما نشرته منذ أكثر من ربع قرن . واليوم من ذلك المكان فى أسوان رأيت وسمعت . كل عجلة تدور . وكل آلة تزأر . وكل محرك يهدر . كل السواعد وكل الأرجل والكواهل والعقول . كل شىء ها هنا يقول :

« إنى حى . إنى حى . »

وآلاف من أبناء جلدتى يمرون بى سراعا صامتين . يحملون الصخور فوق لوريات تنطلق كالقذائف فى أجواء الغبار . وينقلون الردم على صنادل تمرق فى الماء . ويهبطون كالنمل يثقبون الأنفاق . ويحلقون كالصقور بالرافعات إلى السماء . دوامات نشاط تتقاذفنى من كل جانب . وكلها صامتة . لا صيحة ولا صرخة ولا حديث . ولكنه

عمل منطلق خاطف . إذا غفلت أو تغافلت لحظة عن موضعى فى الطريق ما أشعر إلا والعجلات تكاد تدوسنى . ما من أحد لديه وقت لتحذيرى . كل شيء يكاد يقول لى معاتبا موبخا : تنح عنا فلا مكان هنا لمتفرج عابث أو عاطل غافل ... كان ينتابنى — وهذا حقيقى — شعور بالخجل لمجرد أنى متفرج بين هؤلاء العاملين . كدت أصيح بهم : شغلونى معكم فى شيء . ولو حمل حصاة من الحصى ...

نعم . كل شيء متحرك فى صمت . وكل صمت حولى فى أسوان تنبعث منه أصوات تقول :

« إنى حى . إنى حى . »

٣

تحويل النيل أو تحويل التاريخ

« أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام .. لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى أو معجزات » .

عبارة ذكرنى بها أولئك الذين سافروا قبلى إلى أسوان ، وكرروها لى قائلين : اذهب لترى بنفسك معنى عبارتك مجسدا ماثلا للعيان !..

وسافرت .

وهناك جعلت أقول لنفسى مرددا : « نعم . هذه الأمة قد استطاعت . أخيرا . نعم استطاعت ... »

لكن الذى شغل فكرى بعدئذ هو هذا السؤال :

« لكن كيف ؟ ولماذا ؟ » .

أترى الشرط الأساسى لقوتنا هو أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ؟. أن تكون لنا إرادة نابعة من أعماقنا ؟. أن يقوم فينا من صلبنا من يعبر عن إرادتنا . بالتفكير والتنفيذ ؟.

إذن ما جاء فى « عودة الروح » لم يكن مجرد خيال !.. وهذا يدهشنى .

لكن الذى أدهشنر حقا أكثر من أى شىء هو المدى الحقيقى لتلك الكلمة الصغيرة التى نلفظها ببساطة : « الإرادة » . هنا حقا العجب !...

إن الذى يحرك الجبل اليوم ويحول النهر ليست الآلات والمعدات والخبراء . إنها الإرادة والعزم والتصميم .

إن الأدوات والآلات أجهزة صماء لا تدب فيها الحياة إلا بشرارة الإرادة .

وعندما وقفت أتأمل اللافتة المكتوب عليها : يا بناة السد لم يبق على تحويل مجرى النيل الخالد سوى كذا يوما ـــ وكل يوم بالطبع ينقص يوم ـــ هالنى المعنى المجسد لما يقال عن إرادة الإنسان التى تقف أمام إرادة الطبيعة ، وجها لوجه . هذه المبارزة الهائلة رأيتها رؤية العين .

وغدا عندما يجد رمسيس نفسه وقد حمل حملا من مكانه هو وزوجته ومعبده ووضع فى أعلى الجبل ، ويرى النيل الذى كان يداعب قدميه منذ القدم ، قد انقلب بحيرة عميقة عظيمة ، سوف يعجب ولا شك ويخاطب إلـٰهه « بتاح » المرسوم على حائط معبده يقدم إليه القرابين :

ـــ أخبرنى مَنْ من الآلهة فعل بنا هذه الأفاعيل ؟!..

وسوف يحار « بتاح » فى الجواب .

ـــ ما الذى جعل الأرض التى أقمنا فوقها طويلا تهتز تحت أقدامنا ؟!.

وليس هذا هو المهم لو درى . إن دهشة رمسيس الحقيقية هى عندما يعلم أن تحويل النهر واهتزاز الأرض ليس أكثر من مظهر خارجى مادى لما هو أعجب وأروع : شعب بأكمله يتحول تفكيره ويتغير مجرى تاريخه .

إن التاريخ الإنسانى يتغير بتغير خط السير المعتاد لتفكير المجتمع .

ونحن الآن عند ملتقى الطريق لتغيير فى نظرتنا إلى القيم والمثل .

لقد بدأنا نرى الحقائق القديمة تهتز عند أقدامنا .

ولعل أول حقيقة ثابتة شعرنا باهتزازها هى الإيمان بقوة الامتلاك كوسيلة تأمين فى الحياة . التأمين الفردى العائلى بالميراث فى المال والعقار .. كل ذلك قد انهار .

تغير تفكيرنا اليوم وبدأنا نرى التأمين فى « العمل » . ورثوا أولادكم قدرة على

العمل . الأمان والضمان منذ اليوم فيما نعمل لا فيما نملك .

تلك هي إحدى الحقائق الكبرى التي تحول إليها إيماننا اليوم .

هنا إذن الأهمية الحقيقية لتحويل النيل . إنه تحويل فى التفكير . وتحويل فى التاريخ تبعا لذلك .

وعندما عدت أدراجي جعلت أتصفح الوجوه طول الطريق . وأنظر إلى أمواج شعبنا فى تدافعه وانطلاقه وأقول :

« نعم . هذا صحيح . إنه فعلا يتحول وينطلق . » بل إنى أرى أمامى شيئا أكثر من التحول والانطلاق : التشكل . إنى أكاد أرى فى كتلة هذه الحموع التى يتألف منها شعبنا كيف سيكون شكله غدا . وذكرنى المنظر بما كنت أبصره على ضفتى النيل وأنا أتطلع من نافذة الزورق البخارى فى طريقى إلى أبى سمبل . رأيت بعض الصخور ناتئة فى التلال وقد كادت تتخذ أشكالا آدمية . صحت فى دهشة : إنها تكاد تشكل نفسها !.

الشعوب أيضا فى بعض مراحلها نكاد نبصر فيها بأعيننا بوادر التشكل .

وهذا ما ألمحه الآن فى الطريق كل يوم وأقول : نحن نتشكل . وإنى أرى اليوم بوضوح شكل أمتنا غدا .

* * *

أنا والأهرام قبل ٣٠ عاما

والأهرام فى السنة السبعين من عمرها

هذا المقال كتبه الأستاذ توفيق الحكيم منذ حوالى ٣٠ عاما ، يوم ٢١ يناير ١٩٤٥ ، وكان عمر الأهرام وقتئذ ٧٠ عاما . كان احتفال جريدة الأهرام بمرور مائة عام على مولدها مجرد حلم عابر تحدث عنه رئيس تحريرها فى ذلك الوقت ، أنطون « بك » الجميل ، وعندما زار توفيق الحكيم الأهرام مهنئا بعيد الميلاد السبعين للجريدة قال لرئيس التحرير مداعبا : سأكتب إلى جريدتنا هذه مهنئا عندما تبلغ المائة من عمرها . وكان رد الحاضرين — كما هو مسجل فى مقدمة المقال — أن الحكيم « يسوف » وأنه « إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة . هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل : أنت لتكتب ونحن لنهنئ ؟ » .

وحسمت المناقشة عندما طلب الحاضرون من توفيق الحكيم « بخياله بعيد المدى » أن « يتصور » الأهرام وقد بلغ عمره مائة سنة .

وكتب الأستاذ توفيق الحكيم المقال . ومد الله فى عمره حتى عاش احتفال الأهرام بعيده المئوى .

ولقى الجميع ربهم باستثناء كاتب المقال — الأستاذ توفيق الحكيم — والفنان صاروخان الذى رسم صورة « متخيلا » الحكيم وهو يكتب المقال فى العيد المئوى .

وفيما يلى : مقال توفيق الحكيم « الحلم » ، وتعليق له من « الواقع » .

كان المقال الأول بطلب من أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام فى عام ١٩٤٥ .

بعد ٣٠ سنة

والأهرام فى السنة المائة من عمرها

كتب الأستاذ أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام بهذه المناسبة ما نصه :

« أتمت « الأهرام » فى أول هذا الشهر السنة السبعين من عمرها ، كما أشرنا إلى ذلك فى حينه . وكان الأستاذ الكبير توفيق الحكيم بين زوار « ندوة الأهرام » فى تلك الليلة . فقال : سأكتب إلى جريدتنا هذه مهنئا عندما تبلغ المائة من عمرها ...

فقال الحاضرون : وعلام هذا التسويف ؟ فإذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة ، هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل .. أنت لتكتب ونحن لنهنئ ؟.. » .

وقال بعضهم : الأمر أبسط من ذلك ، وخيال توفيق الحكيم بعيد المدى . فليتصور إذن أن « الأهرام » ، وهى اليوم بنت السبعين ، قد بلغت المائة ، وأنه ، وهو اليوم ابن الثالثة والأربعين ، قد بلغ الثالثة والسبعين . وليكتب اليوم ما كان سيكتبه بعد هذه الحقبة من الزمن ... » .

فراقت الفكرة الأستاذ الحكيم ــ وهو مولع بالابتكار ــ فقام وكتب الرسالة الآتية بتاريخ يناير سنة ١٩٧٥ (وقد حالت المعركة الانتخابية دون نشرها فى حينها) :

القاهرة فى أول يناير ١٩٧٥ ..

صديقى الجليل أنطون الجميل « بك » (وقد تكون « باشا ») :

اسمح لى ، وأنا الآن شيخ جاوز السبعين ، أن أهنئ « الأهرام » الغراء ببلوغها اليوم قرنا من عمرها الحافل المجيد . وإن حياة « الأهرام » هى فى الحقيقة حياة مصر فى أجل مراحل تطورها السعيد . وإن تاريخها هو تاريخ كل رجل ، وكل حدث ، وكل خطوة ، وكل حركة ، وكل نبضة ، وكل صحوة ، وكل فكرة نبتت فى بلدنا وهبت فى شرقنا .

إنها لى كائن حى عزيز . فى عمرها طويت عمرى وفى صدرها أفرغت ما فى صدرى .

إنها كتاب حياتى الذى يضم صفحات شبابى ، وخطرات كهولتى ، وخلجات شيخوختى .

إن أصابعى المرتجفة الآن تقلب أعداد « الأهرام » لثلاثين سنة خلت ، فأحس فرحا يدب فى كيانى المتهدم كما تدب الحياة الخضراء فى الكرمة العتيقة ...

نعم لقد عشنا ذلك العهد معا يا صديقى العزيز ، وكنا مع أصدقائنا نسهر فى حجرة مكتبك ونسمر ، ونتابع ما يجرى فى البلد من أحداث نعقب عليها أحيانا جادين ، وأحيانا هازلين ، نرسل ضحكاتنا البريئة الصاخبة فى جوف الليل ترن رنين أقداح الراح بغير إثم ...

يا له من عهد !.. لقد كانت السياسة وقتئذ مسلاة الناس ، وكانت الانتخابات النيابية ملهاتهم . يضيعون فيها كل مالهم وعقولهم ، ويهتمون بها اهتمام الإنجليز بلعبة كرة القدم . ما من صديق لنا ، إذا كنت تذكر ، لم يصب بداء السياسة . لقد كانت « البرلمانات » يومئذ مثل كرات « التنيس » يطيح بها كل قابض على المضرب والصولجان . لعل جيل اليوم يدهش لذلك . فنحن الآن — « والأهرام » فى عامها المائة — نعيش عصرا أصبح فيه الشعب هو حامل المضرب ، والحكومات هى الكرات . إن الأمر كما ترى لم يتغير كثيرا . والذى تغير هى اليد التى تطوح وتقذف ...

نحن لسنا من الشيوخ الرجعيين ، ولا تظن أنى ساخط على عصرنا الحاضر ، آسف على زوال زماننا السالف . فمشكلة الحكم لا يحلها قرن من الزمان ولا قرون . إنها المشكلة الخالدة . إنها من تلك المعضلات التى خلقت بغير حل .. هنالك حجرات مغلقة لن يجد لها البشر مفاتيح . سر الحياة من بينها . وكذلك سر الحكم . لأن الحكم كالحياة : توازن بين القوى . إن ظهور الحكم الصالح مثل ظهور الحياة : توازن يتم فى فترة بين العناصر ، ثم لا يلبث أن ينفرط وتعود العناصر إلى التفكك والتضارب والتصادم والنضال . إلى أن ترجع مرة أخرى إلى الانتظام والتوازن فترة من الفترات

وهكذا دواليك .

لا تقل إنى شيخ متشائم .. إنى يا صديقى القديم على ما عهدتنى منذ ثلاثين عاما : رجل هادئ مبتسم للحوادث والأحداث . بل إنى أستطيع أن أقول لك إنى راض عن مجتمعنا الحاضر ... فالشعب قد نال فيه على الأقل حظا وافرا من النضج السياسى والثقافى صقل شخصيته وأبرزها قوية التكوين واضحة الاتجاه . لقد وجد الرأى العام الذى طالما انتظرناه ... وها هى ذى « الأهرام » تطبع اليوم مليون نسخة تنفد جميعها كل صباح ، عدا الملحق الخاص من مجلتها الأسبوعية المصورة .

إن الشعب اليوم يقرأ ويعرف ويريد وهو يقدر لذاته قيمة ، ويحرص على كرامته الآدمية . كل فرد فى الأمة اليوم يدرك أنه لا معنى لحياته إذا لم يمنحه عمله فيها مستوى من العيش خليقا بمواطن متمدن . هذا جميل حقا . ولو ذكرت حياة فلاحنا فى الماضى لرضيت عن حاضرنا بكل ما فيه من عيوب .

على أن الذى يدهشنى هو تشبث كل فرد بحريته الشخصية إلى حد لم يخطر لنا على بال ..

ولا بأس أن أكشف لك أيها الصديق القديم عن جانب من حياتى الخاصة .. ألا تذكر قولك لى ذات ليلة منذ ثلاثين عاما أنك لا تظن أنى سأتزوج بعد أن جاوزت الأربعين ؟.. حقا لقد كنت حصيفا فى رأيك يومئذ ... ولكننى تزوجت مع ذلك بعدئذ . وصرت أبا لفتاة هى اليوم فى الخامسة والعشرين . وقد عنيت بتربيتها وتثقيفها على النحو الذى يرضينى . وإنى لمعجب فعلا بذكائها وطاعتها ومحبتها لى .. ولكنها على الرغم من ذلك تجمح أحيانا وتنفر وتحيد عما رسمته لها من اتجاهات ، وتحاورنى وتداورنى بمنطق عجيب يعجز عن تقديره تفكيرى العتيق . إنها رفضت كل من تخيرت لها من أزواج أكفاء . ووقعت فى غرام « بهلوان » يمشى على الحبل فى أحد ملاهى « السيرك » المعروفة . وإنها لترجو منى أن أوافق على هذا الزواج .. إنها تتحدث عن الحب كأنه الأساس الوحيد لكل حياة زوجية فى عصرنا الحديث . وإنها تزعم لى أن ذلك دليل لنضج الشخصية فى الإنسان . وإن الزواج المبنى على الحب هو وحده الزواج الجدير بفرد حر فى مجتمع راق . وهى تسوق لى حجة بارعة : زواجى غير

الموفق بأمها .. الواقع أنى لم أجعل الحب أساسا للزواج ... ولقد كانت تلك غلطة كبرى كما قالت أمها ، وكما قلت أنا أيضا .

إنى كما تعلم أعيش اليوم بمفردى كما عشت دائما من قبل . ولكن الوحدة فى مثل سنى الآن مريرة ... آه أيها الصديق العزيز ، إنى أغبطك : إنك تعيش دائما مع « الأهرام » . تلك الصحيفة التى اقترن اسمك باسمها من قديم كما يقترن اسم الزوج بزوجته . إنها تطالعك كل صباح بوجهها المشرق المتجدد فتحس أن حياتك هى الأخرى تشرق معها وتتجدد . وتنظر إلى بياض ورقها فتنسى بياض شعرك . إنها تكبرك بقليل ولكنك أعطيتها كل حياتك .. لطالما قلت لى إنك كنت تفضل الانفصال عنها والتحرر منها وتكريس حياتك لنفسك تنفقها كما يحلو لك فى أى أرض شئت ولكنك لم تستطع . لأنك تحبها . ولأنها تحبك . إنها تشدك من أذيالك كلما تحركت ، وتجلسك على مقعدك الدائم فى حجرة مكتبك . لأنها تريد منك أن تنظر فى وجهها كل صباح ..

أهنئك بهذه الزوجة الوفية ، الوفية لك ولمصر وللشرق . وأرجو منك أن تبلغها تهنئتى بها ببلوغها سن المائة ، وهى لمثلها سن الشباب ، ولسوف يهنئها التاريخ ببلوغ المائتين ثم المئات ...

توفيق الحكيم

واليــوم ..

واليوم ما هو رأيى فيما قلت وتنبأت منذ ثلاثين سنة ؟.. إنى الآن أرجع بفكرى لأحاول تذكرت ما فات ، كما كنت فى الماضى أمد خيالى إلى الغد محاولا رؤية ما هو آت ... لقد كنا فى تلك الليلة .. ليلة أول يناير ١٩٤٥ مجتمعين فعلا فى ندوة الأهرام كما قال رئيس تحريرها وقتئذ أنطون الجميل فى تقديمه لخطابى ... لقد كانت ندوة تضم شخصيات البلد من كل صنف ولون ... منهم الوزراء وأحيانا رؤساء الوزارات أثناء

التقاعد ، ومنهم رجال الأحزاب المختلفين ، ومنهم الشعراء والأدباء ، بل أيضا مشاهير المحامين والمهندسين والأطباء ... منهم الزائر الدائم المنتظم ، ومنهم الوافد المتردد من حين إلى حين .. عقول مصر كلها كان لا بد لها أن تمر يوميا وأن تصادف فى ندوة الأهرام ... وما كان العدد يزيد مع ذلك كل ليلة على العشرين ، فحجرة أنطون الجميل ما كانت تتسع لأكثر من ذلك العدد . وكان هو يجلس إلى مكتبه يباشر عمله الصحفى فى حضور المجتمعين ، وهم يسمرون ويتناقشون فى صخب أو هدوء على حسب الأحوال . وهو مشغول عنهم بعمله ، ويشارك أحيانا فى الأحاديث بفكرة طارئة أو بضحكة لنكتة عابرة ... كانت له مقدرة على التركيز فى العمل وسط هذا الجمع الصاخب . إلا إذا احتاج الأمر إلى تفرغ خاص فإنه يتركنا لحظات إلى حجرة صغيرة ملحقة بمكتبه ، بها جهاز تلفزيونى للمكالمات المهمة والسرية ... وكنا نحن أعضاء الندوة لا نبدأ افتتاحها إلا قبل منتصف الليل بساعة أو ساعتين لنتيح له وقتا يصرف فيه شؤونه ، ونجلس نحن فى مقهى بار اللواء المواجه لمبنى الأهرام حتى تحين ساعة الندوة . وكان مقهى بار اللواء ، باسمه المنسوب إلى جريدة الزعيم مصطفى كامل ، مشهورا برواده من رجال السياسة والصحافة والأدب . والعجيب فى ذلك العهد أن اختلاف الانتماء الحزبى واحتدام المناقشات بين كل حزب لم يكن يمنع من لقاء الجميع فى ندوة واحدة ... كان هناك تفريق بين الخصومة السياسية والخصومة الشخصية ...

فإذا دار حديث فى السياسة كان من الطبيعى أن يعصف الجو بالنقاش الحزبى . فإذا انقلب الحديث إلى موضوعات الشعر والأدب والفن ونحو ذلك فإن الجو يصفو بين الجميع على اختلاف ألوانهم الحزبية وكأنهم أبناء أسرة واحدة : أسرة الثقافة بمعناها الرحب ...

لذلك ، ما أن فتح فى تلك الليلة باب الحديث فى عمر الأهرام ، وما بقى له من أعوام ليبلغ المائة ، حتى هدأ الصخب المحتدم حول المعركة الانتخابية التى كانت وقتئذ قائمة ، وجعل الحاضرون يتصورون ما سوف يكون الحال بعد ثلاثين سنة ...

وهكذا اتجهوا نحوى بأبصارهم يطالبوننى أنا بالتخيل ... وتخيلت وكتبت ما تخيلته فى صورة خطاب منى إلى رئيس تحرير الأهرام أنطون الجميل بك .. لم يكن قد نال الباشوية بعد .. وقد نالها فعلا بعد ذلك .. أما بقية التنبؤات فهى أمام قارئ اليوم ، له أن يقلب فيها النظر ليرى ما تحقق منها وما لم يتحقق .. أما فيما جاء من تخيلات عن حياتى الخاصة فقد كنت فى ذلك الوقت عزبا لم أتزوج بعد ، ولا ألمح فى أفق حياتى ما يبشر بزواج ولذلك جاء التنبؤ خيالا مشوبا بالمرارة والتشاؤم ...

أما بعد ... فقد شاء الله تعالى أن أعيش لأرى الأهرام فى عيدها المئوى بالواقع لا بالخيال ... مكررا لها التهنئة ، وأنا حزين النفس إذ أقرأ عبارة أنطون الجميل عما قاله الحاضرون فى تلك الندوة :

« ... إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة ، هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل ، أنت لتكتب ونحن لنهنئ ؟ » ..

ولقد ذهب بالفعل إلى رحمة الله أنطون الجميل ومعه أغلب الحاضرين ، كما ذهب ذلك الماضى كله بخيره وشره كأنه حلم ... وبقى فيمن بقى معى المصور صاروخان الذى تخيلنى بهذه الصورة عندما أكون اليوم ... ولم يكن منْ تقاليد الأهرام وقتذاك نشر التصوير الكاريكاتورى ، ولكن رئيس التحرير اضطر كما قال إلى خرق هذا التقليد لاستحالة نشر صورة فتوغرافية لى بعد ثلاثين سنة !...

والآن ماذا أقول ؟ لم يعد عندى شىء أقوله غير كلمة واحدة : كل شىء إلى زوال ومصر العزيزة هى الباقية ..

توفيق الحكيم

عودة إلى الشباب

سئلت أثناء وجودى فى باريس هذا السؤال :

« إذا أردت أن تكتب اليوم من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » .. كيف تكتبها ؟ » .

سؤال يبدو كتلك الأسئلة السطحية التى تلقى علينا من حين إلى حين لمجرد التسلية أو التفكهه . ولذلك لم آخذه كثيرا على سبيل الجد .. ولكن عندما خلوت إلى نفسى وأمعنت النظر فى السؤال وحاولت الإجابة وجدت تفكيرى قد طرق أبوابا وتخطى أعتابا ودخل فى دهاليز طويلة من أزمنة وعهود . وذلك شأن الأسئلة التى تبدو بسيطة بديهية فإذا عرضناها على التفكير والتحليل ظهرت أغوارها البعيدة ، مثل السؤال عن : ما هو الماء وما هو الهواء !.. فالإجابة الدقيقة عن المسائل الأدبية ومؤلفاتها تقتضى أيضا التحليل العلمى أى الموضوعى للظروف التى نشأت فيها . والتحليل العلمى يستند دائما على كلمة واحدة هى « لماذا » ؟ أى السبب ويستبعد كلمة « يجب » أى الرغبة . فعندما نلاحظ مثلا أن قلب الإنسان فى الجانب الأيسر ، فإن الكلام يكون علميا وموضوعيا إذا قلنا « لماذا » هو كذلك ؟ وهو يكون بعيدا عن الأسلوب العلمى إذا قلنا « نرغب أو نود لو كان فى الجانب الأيمن » . وهذا أن أصبح بديهيا فى مجال « العلم » الباحث عن الحقيقة . أما فى مجال « الأدب والفن » فإن الخلط لم يزل موجودا . ولذلك لابد من التفريق الواضح بين الناقد والباحث . فالناقد وخاصة إذا كان النقد صحفيا أى موقوتا بزمان محدد ومكان معين له أن يقول « أرغب وأود وأفضل » أى أن نلجأ إلى أسلوب شخصى أو توجيهى . أما الباحث وخاصة إذا كان البحث غير موقوت بالحاضر المباشر أى بأشياء وأعمال استقرت فى التاريخ الأدبى أو الفنى أو الاجتماعى ، فإن أسلوب الرغبة أو التفضيل أو التوجيه أى الأسلوب الشخصى يصبح لا محل له ولا مبرر ، ولابد عندئذ من استخدام أنماط الأسلوب

العلمى الموضوعى التحليلى . أى لماذا ؟.. كان الأمر كذلك ؟..

وهذا التفريق بين الأسلوبين والمهمتين يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا عندما نواجه القضايا الأدبية والفنية والاجتماعية .

من أجل هذا كانت الإجابة الدقيقة الجادة عن ذلك السؤال المتعلق بمؤلفاتى القديمة التى نشرت منذ أكثر من أربعين عاما تقتضى منى استخدام الأسلوب الموضوعى التحليلى ــ أى السؤال بكلمة « لماذا » ؟ لماذا كان الأمر كذلك ؟ ولماذا كتبت هذه المؤلفات أصلا ؟

ثم لماذا كتبت على هذا النهج ؟ وكما هو الحال فى دراسة القلب مثلا ووجوده فى الجانب الأيسر فإن علينا أن ندرس أسباب هذا الوجود أولا وضروراته ومهمته ونشأته واتصاله ببقية الأعضاء والأجزاء . فإذا صنفنا العمل الأدبى على أنه رواية أو مسرحية ، فمن واجبنا إذن أن نحلل الظروف التاريخية والأدبية والاجتماعية التى اقتضت ظهور هذا العمل فى ذلك الزمان والمكان ، بصفته التى ظهر بها . ذلك أن الأدب أو الفن إذا كان صادقا فلابد أن يكون وجوده بالصفة التى ظهر بها مرتبطا بضرورات التطور الحضارى للبيئة التى وجد فيها .. فما هو التطور الحضارى الذى كان قائما عند ظهور تلك المؤلفات القديمة ؟... يجب إذن أن نحلل حالة مصر فى عشرينيات هذا القرن . وهذا عمل يطول شرحه ويحتاج إلى دأب وتخصص وتفرغ ، ومكانه فى رسائل الجامعات ودراسات أساتذتها وبحوث المؤلفين والنقاد الجادين . ولكن يكفى هنا أن أشير إشارة سريعة إلى ما علق بذاكرتى فى هذا المجال . فمصر فى عشرينيات هذا القرن كانت خارجة من ثورة ١٩١٩ . وقد جاءت هذه الثورة على أثر مطالبتها المحتل البريطانى باستقلالها . ذلك أن مصر كانت تابعة اسميا للدولة العثمانية ، وإن كانت عمليا خاضعة للاحتلال البريطانى . فلما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب أعداء بريطانيا ، وكان حاكم مصر الخديو عباس الثانى قد ذهب إلى إسطنبول للاستجمام وإظهار الولاء للباب العالى العثمانى ، كما كانت العادة فى ذلك العهد ، فقد اعتبرته السلطات البريطانية المحتلة منحازا هو أيضا إلى أعدائها ، وقامت بوضع مصر كلها تحت حماية بريطانيا العظمى رسميا طالما الحرب

قائمة . وانتهت الحرب فى أواخر عام ١٩١٨ فكان من الطبيعى أن تسأل مصر عن مصير الحماية البريطانية وعن وضعها السياسى ، بعد هزيمة الدولة العثمانية فى هذه الحرب . واستفسرت بريطانيا عن معنى السؤال وعما تريده مصر بعد رفع الحماية البريطانية ، هل تريد العودة إلى التبعية العثمانية ؟ وهنا أعلنت مصر صراحة عن أمنيتها ورغبتها فى عدم تبعيتها لأحد ولا لجهة . إنما هى تطلب الاستقلال التام . فلما رفضت بريطانيا ثارت مصر ثورتها . وحاول المحتلون والخصوم إقامة العراقيل المعروفة بزعمهم أن فى مصر طوائف وأقليات دينية تقتضى الحماية ، ولكن مصر أثبتت بالفعل وحدة مصر المتينة ، وأن مصر هى كلها مصر ، ولا يوجد فى مصر غير كتلة واحدة هم المصريون الذين لم يعرفوا فى تاريخهم الطويل أى تفريق أو تمزيق بسبب اختلاف فى الدين . وعانق الهلال الصليب فى راية واحدة مرفوعة فى وجه المحتلين . وذهل الاحتلال البريطانى ، ولكنه جعل يشكك متجاهلا متسائلا :

وما هى شخصية مصر وهذا الشعب الذى يسمى بالمصريين ؟!. وعندئذ كان على الفكر والأدب والفن فى مصر الإجابة على هذا السؤال .. وأخذ كل فى مجاله البحث عن كيان مصر والتنقيب فى جذورها والكشف عن شخصيتها ، فظهرت المحاولات العديدة فى الفن والأدب والفكر والسياسة والاقتصاد لتجلية الشخصية المصرية المستقلة وإبراز معالمها وملامحها . وأخص بالذكر هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ما كان منها متصلا اتصالا مباشرا بالإرادة المتعمدة المباشرة لربط مصر بجذورها القديمة :

مثل تمثال « نهضة مصر » لمختار ، ولحن سيد درويش « أنا المصرى كريم العنصرين بنيت المجد بين الأهرامين » ، و « عودة الروح » مصدرة بعبارة من « كتاب الموتى » لمصر القديمة « انهض يا أوزوريس أنا ابنك حوريس جئت أعيد إليك الحياة .. » .. إلخ .. إلخ .

وقد فهم البعض خطأ أنها دعوة إلى الفرعونية ولم يكن الأمر كذلك مطلقا . إنما كان المقصود هو نفض التراب عن الشخصية المصرية لإظهار ملامحها المميزة وكيانها المستقل فى وقت ينكر فيه الخصوم والمحتلون حقها فى الاستقلال .. وشخصية مصر أو

غيرها من البلاد والشعوب والأمم تماثل شخصية الفرد الواحد . فمعرفة شخصية فرد تقتضى تتبع مراحل عمره منذ وجوده على الأرض . فمن يزعم أنه يستطيع أن يعيش بشخصية كاملة التكوين بحذف مرحلة من مراحل وجوده وتاريخه بإلغائها من ذاكراته ، فإن هذا الفرد فاقد الذاكرة والوعى لجزء من تاريخ وجوده ويعتبر فى نظر الطب مريضا عقليا .. كان إذن شغلنا الشاغل فى ذلك العهد هو إبراز شخصية مصر المتكاملة المستقلة بذاتها فى وقت كان الأعداء فيه والمحتلون ينكرون هذه الشخصية إلى حد كان تمثيل مصر السياسى أمام العالم يقوم به عنا سفير إنجليزى ، ولم نتخلص من هذا الوضع الظالم إلا بعد ثورتنا عام ١٩١٩ وإرغامنا المحتل أن يعترف بشخصية مصر ، فأنشئت عندئذ السفارات المصرية مستقلة عن تلك السفارات البريطانية .. إذن فكان من الضرورى والطبيعى أن يكون الفكر والأدب والفن فى هده المرحلة وهذه الظروف مرددا ومؤكدا للشخصية المصرية بطريق مباشر أو غير مباشر ..

ولكن كان من نتيجة هذا الغوص والتنقيب عن جذور الشخصية المصرية والاهتمام بماضينا ونفض التراب عن أصوله أن فهم خطأ أيضا أن المقصود هو بعث الماضى بأكفانه ليعيش بيننا كما كان فى سالف الأزمان .. وظهر بيننا السلفيون والرجعيون الذين يريدون العودة بعجلة الحياة إلى الوراء . وهنا كان من الطبيعى والضرورى أن ينشأ فى الأدب والفن فى تلك الظروف عمل مثل « أهل الكهف » يمثل أهل الماضى وقد بعثوا فى مجتمع جديد ليعيشوا فيه بأفكارهم القديمة ومشاعرهم السالفة ، فلم يجدوا مكانهم فى هذا المجتمع الذى اعتبرهم أشباحا ولم يقبلوا كمعاصرين معايشين .. بل كتراث ينظر إليه باحترام وتبجيل ، دون أن يسمح له بأن يتدخل فى حياته بنظرته ومثله القديمة فيعرقل انطلاقة الحياة وتطورها .. إذن لم يكن اختيار قصة أهل الكهف بالذات من بين قصص القرآن اختيارا عفويا غير ملتزم وإلا كانت قصة يوسف مثلا أكثر إمتاعا .. ولكن الاختيار هنا لأهل الكهف كان اختيارا طبيعيا عضويا ومرتبطا بقضية مجتمع فى حالة تجديد فكرى وتطور حضارى .

ثم دخلنا فى أواخر الثلاثينيات وقد تبلورت شخصية مصر واستقرت فى الأذهان ، كما ظهر بوضوح اتجاه التجديد الفكرى والتطور الحضارى عندنا بالنظر الجاد المدروس

فى تراثنا القديم واستخلاص كنوزه الخالدة وعرضها فى الأثواب الملائمة للعصور الحديثة ، على ضوء مناهج البحث الجديدة ، واستلهام روح التراث وجوهره لتجسيده فى قوالب معاصرة .

وعندئذ ظهرت قضية أخرى هى قضية الشرق العربى كله وحضارته الأصيلة فى مواجهة الحضارة الأوروبية السائدة ، فكان من الطبيعى والضرورى كذلك أن ينشأ فى الأدب والفن الروائى فى ذلك الوقت عمل مثل « عصفور من الشرق » يطرح القضية من وجهة نظر الشرق فى مواجهته لحضارة أوروبا . ولم تكن هذه أول مرة تحدث فيها هذه المواجهة فقد سبق أن حدثت فى القرن الماضى لرفاعة الطهطاوى . مع هذا الفارق وهو أن رفاعة الطهطاوى واجه الحضارة الأوروبية ومصر لم تكن قد استيقظت تماما ولم يكن الوعى لشخصيتها قد تبلور تماما . وكذلك الشرق العربى كله . بينما كانت أوروبا فى ذلك القرن التاسع عشر فى أوج عزتها وسلطانها الحضارى الذى لم تشبه بعد شائبة شك . أما « عصفور من الشرق » فقد ظهرت ومصر قد بلورت شخصيتها وعرفت اتجاهها الحضارى ، بينما أوروبا وقد خرجت من الحرب العالمية الأولى جريحة مضعضعة بدأت تشك فى مستقبل حضارتها كما ظهر فى كتابات الكثير من مفكريها .. وكانت هذه هى القضية المطروحة وقتئذ أمام الشرق العربى : « مادام الأمر كذلك فى الغرب نفسه فماذا نأخذ وماذا ندع ؟ » .. وكان على رواية « عصفور من الشرق » عرض القضية لا فى صورة محاسن أو مساوئ بغير حدود لكل من الحضارتين الشرقية والغربية ، ولكن فى صورة المحاسن والأضداد لكل منهما بروح العدل والإنصاف ، لا بروح المحاباة المغرقة أو التحامل المرير ، على قدر الإمكان ، إذ كان أيضا على الأدب والفن فى ذلك الوقت رفع الروح المعنوية لمصر الشارعة فى النهوض و « عودة الروح » إليها ، وللشرق العربى وحضارته المتخاذلة أمام الحضارة الأوروبية الساحقة ..

والآن نعود إلى السؤال المطروح : إذا أردت أن تكتب اليوم من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » كيف تكتبها ؟

.. لعل الصعوبات تبدو الآن واضحة بعد أن عرفنا تلك الخلفيات والأرضيات التى

نبتت فيها تلك الأعمال . ذلك أن عبارة السؤال « تكتب اليوم من جديد » معناها البحث أولا عن الأرضية الجديدة . هذا من حيث « المضمون » ، ولكن عبارة « كيف تكتبها » تحمل أيضا معنى البحث فى « الشكل » ... وكما أن المضمون له خلفية وأرضية ، كذلك الشكل . فأصالته هو أيضا تأتى من تطوره المرتبط بتاريخ النوع وبيئته الأدبية والفنية ومن طبيعة الأديب والفنان ، ومن جو بلاده صافيا كان أو غائما ومن جغرافيته جبليا كان أو سهلا ، صحراويا كان أو مكتنفا بالغابات .. ولقد كنت فى باريس يوم ولدت السوريالية وظهرت المذاهب الروائية الجديدة التى تتسم بالتعقيد أو بالإغراب ، كما أضنانى التفكير والبحث عن أسلوب لى ، وانتهى بى الأمر إلى أن الأسلوب فى الفن مثله فى المشى . ومن تكلف أسلوبا خاصا فى مشيته تعثر ، ومن ترك نفسه على طبيعته سار . ولذلك لم ألتفت إلى المذاهب والأساليب عندما شرعت فى الكتابة ، وأمسكت بالقلم وتركت طبيعتى تقودنى .. هذه الطبيعة التى تمتد جذورها فى الأرض والبيئة والتاريخ والجو ونحو ذلك من المكونات لوجودنا ، دون أن أتعمد تذكر كل ذلك ساعة الكتابة وإلا انحرفت إلى التكلف . يجب أن أمشى مشيتى الطبيعية وكفى ، لا أن أذكر وأضعه فى حسابى وتخطيطى ساعة المشى ، وإلا أصبح المشى كله عملية متصنعة تدعو إلى السخرية .. إذن لو كتبت تلك الأعمال القديمة من جديد اليوم فإنى أعتقد من حيث « الشكل » أنى لن أغير هذا المنهج : وهو ترك طبيعتى تقود قلمى ... وليس معنى هذا إنكار التطور أو التجديد . فالطبيعة نفسها تطور دائم وتجديد مستمر .. حتى فى وظائف الأعضاء وخلايا الجسم ... وطبيعتى الخاصة بالذات تبغض الجمود وتحب التجديد . ولكن هناك فرقا كبيرا بين التطور الطبيعى وتكلف التطور ، وبين التجديد الذى تحتمه ضرورات تاريخية واجتماعية وفنية وبين التجديد الذى تدفعه نزعات مظهرية وتظاهرية ..

من حيث « الشكل » إذن لا توجد بالنسبة لى مشكلة . أما من حيث « المضمون » فسوف أجد نفسى أمام مشكلات معقدة . فالأرضية هنا اليوم ليست ثابتة . فنحن فى أوائل القرن كنا أمام قضايا واضحة . ليست لمصر وحدها ولا للشرق العربى وحده ، ولكن للعالم كله . فبعد ثورة ١٩١٩ أصبحت هذه القضايا فيما يخص

بلادنا أكثر وضوحا ، فأمكن للأدب والفن رؤيتها وحصرها . أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تزلزلت الأرض تحت أقدام العالم كله . واهتزت قلاع العقائد والمبادئ . ووضعت فى ميدان المنازعات المسلمات الرواسخ . وتغيرت جغرافية الأمم والشعوب وعدلت الخرائط وظفرت بالاستقلال والحرية السياسية شعوب لبثت تحت نير القهر والاستعباد طيلة قرون . واتضح أن الاستقلال السياسى الذى ظفرت به الشعوب ليس هو الاستقلال الاقتصادى الذى لم تظفر به . وظهر أن الاستقلال الاقتصادى ليس مطلبا للشعوب فقط بل هو أيضا مطلب للقارات. ورأينا قارة مثل أوروبا التى كنا نعتبرها سيدة العالم أصبحت تخشى على استقلالها الاقتصادى وربما أيضا السياسى من عملاقين هائلين عن يمين وعن يسار . كما اتضح أن التقدم العلمى الذى أدى إلى انقسام الذرة التى كانت فى المفهوم العام جوهرا فردا غير قابل للانقسام ، قد أدى إلى انقسام فى كل ما كنا نعتقد أنه جوهر فرد فى مجال القيم الإنسانية والاجتماعية والسياسية .. فمثلا « الحرية » و« الديموقراطية » لم يصبح لها مفهوم واحد : كما كان الحال فيما مضى حيث كان يكفى أن تذكر كلمة « الحرية » ليفهم الجميع المقصود ، لأن « الحرية » كانت قيمة إنسانية لها كيان واحد . أما اليوم فهذه القيمة انقسمت إلى كيانين . فالحرية فى المجتمع الرأسمالى هى حرية الفرد فى الحركة والتعبير والعمل . وهى فى المجتمع الشيوعى حرية البروليتاريا فى أن لا تستعبدها طبقة أخرى . وكذلك « الديمقراطية » انقسمت إلى ديمقراطيتين .. ديمقراطية تقبل وجود المعارضة كأساس فى نظام حكمها ، وديمقراطية ليس فى نظامها هذا الأساس باعتبار أنها قائمة على طبقة واحدة هى الشعب كله ، وأن المعارضة لا تكون إلا فى المجتمع الطبقى .. ولم يقف الأمر اليوم عند هذا الحد من انقسام جوهر القيمة التى كانت واحدة ، بل إن المعانى والمواقف التى كانت فى الماضى ثابتة أو بطيئة الحركة أصبحت الآن فى عالم الصواريخ والطائرات النفاثة سريعة التحرك والتغير .. فالولايات المتحدة التى حاربت النازية تتغير وتتحول إلى مناصرة الأنظمة الشبيهة بالنازية (فى أمريكا الجنوبية مثلا) . ولقد جاء فى كتاب لكاتب سياسى اسمه « دانييل كوستيل » أن الأمريكان يفضلون معسكرا نازيا منظما على معسكر الديمقراطيين الألمان » .. كما ظهر كتاب للعالم السوفيتى « أندريا ساحاروف » أبو القنبلة الهيدروجينية بعنوان

« بلادى والعالم » ذكر فيه أن العامل فى أى دولة متقدمة فى البلاد الرأسمالية يرفض أن يعمل بالأجر الذى يتقاضاه العامل السوفيتى ، لأن متوسط الأجر الشهرى لهذا العامل السوفيتى هو ٦٠ روبلا إلى ١١٠ روبل ، والحد الأدنى من حيث القدرة الشرائية يعادل ٣٠ دولارا ، فى حين أن متوسط هذا الأجر للعامل الأمريكى هو من ٦٠٠ دولار إلى ٧٠٠ دولار ، مما يتيح له مستوى عاليا فى المعيشة . وكان الرد على ذلك إدانة هذا المجتمع ووصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » أى مجتمع مادى يهبط بقيمة « الإنسان » . واتجه المجتمع السوفيتى إلى الجانب المعنوى والذهنى ففتحت أبواب الفنون الراقية للشعب كغذاء رئيسى ، إلى حد أصبحت فيه محطات المترو تحت الأرض شبيهة بالمتاحف تعرض فيها للشعب لوحات من الفن الرفيع ، وكأن قيمة الإنسان قد وزنت بغير الميزان المادى ، وكأن الشعار أصبح الآن هناك : « ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان » .. أترى الشيوعية التى قامت على المادية تتحول إلى القيم الروحية ؟!! بل إن التغير والتحول فى الاتحاد السوفيتى قد شمل أيضا إجازة المؤلفات التى كان يعتبرها منذ ثلاثين سنة من الأعمال البرجوارية الممنوعة ، فقد نشرت الوكالة السوفيتية لحقوق التأليف قائمة المترجمات الأجنبية التى طبعت ونشرت فى الاتحاد السوفيتى بكميات كبيرة جاء فيها أن ما يقرب من مليون نسخة قد بيعت من قصة الفرسان الثلاثة لـ « ألكسندر دوماس » ، كما أن كتب « فرنسواز ساجان » من بين المطبوعات الرائجة فى الاتحاد السوفيتى اليوم ..

كل هذه التحولات والتغيرات السريعة التى تحدث فى المواقف والمبادئ والأفكار فى وقتنا الحاضر تجعل من الصعب ملاحقتها واعتناقها ، إذ ما تكاد القدم تقف على أرض حتى تتحرك هذه الأرض من تحت القدم وتتخذ موضعا آخر ، تبعا لحركات الفعل ورد الفعل التى تزاولها القوى العظمى المسيطرة على عالم اليوم الذى أصبح كرقعة شطرنج واسعة المدى . ولم يصبح أمام الإنسان سوى أن يختار جانبا من الجوانب ويترك نفسه تتحرك بحركته . فإذا أردت كما جاء فى السؤال أن أكتب اليوم من جديد « عودة الروح » فكيف أكتبها ؟ وبأى مضمون ؟ إن هذا يدعونى أن أسائل نفسى أولا : عودة الروح لمن ؟ وأى روح أقصد ؟ لقد كان معنى الروح عندنا فى

العشرينيات هو رفع روح مصر كما ذكرت وتجلية شخصيتها وتقوية معنوياتها لتكافح فى سبيل استقلالها . وقد تم لمصر ذلك . وإذا أخذت بأقوال جيل الشباب الذى قرأها ويذكر تأثيرها فيه ، وخاصة عندما تسلم ذلك الجيل مصائر مصر ، فإن « عودة الروح » قد أدت مهمتها ، بخيرها وشرها . وكذلك الحال بالنسبة إلى « عصفور من الشرق » .. لابد إذن من مضمون جديد لمثل هذه الأعمال التى لا تقاس على أساس قيمتها الأدبية والفنية وحدها ، بل أيضا وهو الأهم على أساس أثرها وتأثيرها فى مجتمعها ومساره ومصيره ، أو على أساس النتائج التى ترتبت على ظهورها كما هو الحال فى « يوميات نائب فى الأرياف » ، وعلاقتها بإنشاء وزارة للشئون الاجتماعية فى ذلك العهد بمصلحة خاصة للفلاح .. وهو مضمون لم يزل حيا بارزا فى كثير من أعمال الأجيال الأدبية اللاحقة ولن يستنفد أغراضه أبدا.. كذلك مضمون «أهل الكهف» لم يزل حيا ، ليس بالأعمال الأدبية ، ولكن بالمجتمع نفسه الذى تظهر كثيرا فيه قوى السلفية والرجعية أشد مما كانت وتحتاج إلى كفاح جديد .. على أن الأعمال الأدبية المؤثرة فى المجتمع لم يعد من اليسير صدورها عن الكاتب الفرد كما كان الحال فى العشرينيات والثلاثينيات ، فقد تكونت الجماعات والتكتلات والمذاهب والأرضيات التى ينتمى إليها ويقف عليها الكتاب فى سبيل الأهداف التى يؤدونها أو يخاصمونها ، فإذا كانت كتابات الكاتب متجهة إلى تقدمية أو رجعية فإنه يجد نفسه فى الحال تحت راية انتماء تبرزه وتقويه وتمده بالأسلحة الفكرية المعدة إعدادا مقنعا ، وبذلك تصنف أعمال الكاتب تصنيفا مذهبيا ، ويصبح التأثير فى المجتمع تأثيرا جماعيا ..

ولنعد إلى السؤال : كيف أكتب اليوم من جديد تلك الأعمال التى كتبت فى العشرينيات ونشرت فى أوائل الثلاثينيات ؟ إن الإجابة قد اقتضت كما رأينا دراسة المجتمعين : المجتمع الماضى والمجتمع الحاضر .. ولكن السؤال لم يوضح لى حالتى الشخصية عند إعادة الكتابة من جديد لتلك الأعمال ؟ هل أقوم بذلك وأنا على حالتى اليوم من الشيخوخة ؟ أو على افتراض أنى عدت إلى الشباب . شباب المجتمع الحاضر فى هذا العالم المعاصر ؟ إذا كانت الإجابة أن أبقى شيخا كما أنا الآن فما جدوى ذلك ؟

ولماذا لا يقوم شاب بذلك ؟ وما قيمة الشيوخ إذن فى البشر كما فى النبات إذا لم يلقوا فى الأرض بذورا تنتج أشجارا نضرة تتحمل مسئولية الصالح لزمانها ؟ أما إذا كان المطلوب أن أعود افتراضا إلى الشباب فإنى أقول لكم : ومن أدراكم لو عدت شابا أن أعود إلى حمل القلم ؟ لماذا لا تفترضون أنى وقد ظفرت بالشباب لا أنتهز الفرصة هذه المرة وأعيش حياة « الصرمحة » ؟؟؟ عوضا عن حياة « الصرامة » ... صرامة الفكر المتعبة المجهدة .. ستقولون لى على أن تحتفظ بطبعك الذى ولدت به .. آه لعنة الله على هذا الطبع !.. إذن سأسلك نفس الطريق وأحمل القلم ومتاعبه فى عالم جديد غريب غير مفهوم بعد .. هو العالم المنفتح على القرن الحادى والعشرين .

الحضارة والحوار

لست أدرى لماذا لم أكتب شيئا عن الفترة التى لحقت فترة اشتغالى فى سلك القضاء ؟.. لقد عملت بعد ذلك فى وظائف مختلفة ، لى فيها من الذكريات ما كاد يضيع ، وكاد العمر يضيع قبل أن أدون بعضها ... وها هى ذى صفحة منها تذكرنى بها الظروف ... لقد انتقلت من عملى بالريف إلى وظيفة فى وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) . كان ذلك فى أوائل الثلاثينيات — فى عام ١٩٣٣ بالتمام — ولعل شبح الشقاء فى الأرياف ، والحياة المهملة فيها ، ظل يلازمنى بعد استقرارى فى القاهرة ، فنشرت مقالا ألفت فيه نظر الدولة إلى ضرورة الاهتمام بشئون الريف والمجتمع ، وخشيت أن تتعلل الدولة وقتئذ بعجز الميزانية عن إنشاء وزارة خاصة لمثل هذه الأمور ، فلجأت إلى التيسير واقترحت فى ذلك المقال إلحاق هذه المهام الجديدة بوزارة الأوقاف ، للانتفاع بمواردها فى هذه النواحى الإصلاحية ، على أن يطلق عليها اسم « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » ..

ومضت الأيام .. وتغيرت الحكومة .. وجاءت حكومة جديدة تلقفت الفكرة وتشجعت وأنشأت لها وزارة خاصة باسم : « وزارة الشئون الاجتماعية » .. ونص فى قرار إنشائها على أن تقسم إلى مصالح وإدارات منها : « مصلحة للفلاح والتعاون » ، و « مصلحة للعمل » ، و « إدارة للإرشاد » ، وهكذا ... وكنت فى ذلك الحين مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، فنقلت بنفس درجتى مديرا لإدارة الإرشاد فى الوزارة المنشأة .

كان ذلك على ما أذكر فى شهر أكتوبر من عام ١٩٣٩ .. وما كدت أتسلم الإدارة الجديدة حتى تكشفت لى حقيقة الوضع ، وبدا الأمر كما توقعت .. الميزانية ضعيفة .. والوزارة الجديدة قد قامت فى الهواء بلا نقود ... وإذا نحن فيها جميعا منقولون بالانتداب ، وكل منا متروك لنفسه ، فى حيرة من أمره ، لا يدرى أين يجلس ، ولا

كيف يعمل .. وكان اختصاص إدارتى على الورق ، كما جاء فى القرار ، يشبه اليوم اختصاص وزارة الإرشاد أو الإعلام أو الثقافة أو كلها مجتمعة .. فالمسرح والسينما والإذاعة والمعارض والموالد والفنون بأنواعها وهلم جرا .. كل ذلك يدخل فى اختصاصى ... ولكن المشكلة كيف أجمع وألملم هذه الأشياء ، وهى متفرقة فى وزارت مختلفة .. فالمسرح كان يتبع وزارة المعارف ، والسينما تتبع وزارة الداخلية ، والموالد وزارة الأوقاف ، والإذاعة مستقلة ، والمعارض والفنون تتبع هيئات أهلية وهكذا .. كيف أنشئ إدارتى الجديدة إذن من هذه الأشتات ؟.. سألت العون عند وزيرى فوجدته هو أيضا فى حيص بيص .. ولم يعين له أحد وكيلا للوزارة ، واكتفت الحكومة بتعيين سكرتير عام مؤقتا ، وهو الآخر لم يكن يعرف له رأسا من قدم .. وانتهى بى الأمر إلى أن قررت الاعتماد على نفسى ، وذهبت أبحث عن اختصاصى فى كل فج عميق من فجاج الدواوين .. وكانت كل جهة مس تلك الجهات تتبرم بطلبى .. ولما طال إلحاحى ، جعلت كل جهة من تلك الجهات تلقى إلى بأكوام من الملفات والدوسيهات والأضابير وهى تقول : « هذا هو اختصاصك ، تفضل استلمه » !.. فأجمع هذه الأكوام وأضعها فى عربة حنطور على نفقتى وأذهب بها إلى إدارتى ... لقد تحملنا كثيرا من العناء ، وتعرضنا إلى كثير من السخرية ، وأصبحنا موضع تندر من الناس والصحف ونحن نؤسس هذه الوزارة الحديثة التى لم يكن لها مثال نحتذيه فى تاريخنا ، ولا فى تاريخ أى بلد من البلاد التى نعرفها ... وأخيرا استقر بنا الأمر على وجه من الوجوه ، وبدأنا نتوسل ونستعطف ونتسول ، إلى أن وضعت لنا شبه ميزانية مستقلة .. وبدأنا نفكر فى أوجه النشاط الممكن .. وكان من ذلك أن رأينا إنشاء مجلة خاصة بالوزارة .. وكانت بالضرورة تتبع اختصاصى وإدارتى .. وهنا نشأت لى متاعب جديدة لم تكن فى الحسبان .. رأينا أن يكون لهذه المجلة رئيس تحرير يتفرغ لها من بين الموظفين الأدباء .. واستكتبنا لها الأقلام المتهورة فى كل اتجاه ومجال .. فكان يكتب فيها سلامة موسى بأفكاره الجريئة المتحررة ، كما كان يكتب فيها محمد الههياوى الأديب الإسلامى المعروف ببلاغة أسلوبه العربى وأفكاره المحافظة ... واعتدت فى كل صباح وأنا أتناول فنجان قهوتى ، أن أرى رئيس التحرير يدخل على ليطلعنى على سير

الأمور ... وفى ذات يوم دخل واضعا يده على رأسه قائلا :

ـــ الصداع ... الصداع ... لم أعد أطيق ولا أحتمل ... لا بد أن أقول لك ...

قلت له :

ـــ اهدأ وقل لى ... ما هو الموضوع ...؟

قال :

ـــ سلامة موسى ومحمد الهياوى ... أنا فى صداع دائم منهما ... أرجوك أنقذنى ... ابحث لى عن حل ...

قلت له :

ـــ ماذا جرى ؟. اشرح لى الموضوع بدون انفعال ... فهدأ قليلا وقال :

ـــ الموضوع باختصار أن كل يوم يأتى عندى محمد الهياوى يطعن فى سلامة موسى ، فإذا خرج دخل سلامة موسى يطعن فى محمد الهياوى ... وكل منهما يقسم لى أنه سيكف عن الكتابة إذا لم يمنع الآخر منها .. أى لا بد أن نخرس أحدهما كى يكتب لنا الآخر ، وأن نستغنى عن واحد منهما ونستبقى الآخر بمفرده ... ماذا أفعل بين هذين الكاتبين المحترمين ؟... وماذا يكون الحل فى هذه المشكلة ؟!

قلت له مهونا ميسرا :

ـــ أهذه مشكلة عويصة ؟!.. أنا أحلها لك .. إذا جاء إليك أحدهما فأرسله إلى هنا ... وانصرف ... وفى اليوم التالى أرسل إلىّ حسب الاتفاق سلامة موسى ... فدخل يبادرنى بقوله :

ـــ اختاروا بينى وبينه ...

فتجاهلت وقلت :

ـــ من تقصد ؟

قال :

ـــ هذا المدعو محمد الهياوى ... أيعقل أن تستكتبوا فى مجلتكم التى تدعو إلى الإصلاح الاجتماعى ، هذا المتخلف البدائى ، صاحب العقل المغلق ، الذى يعيش بأفكار مضى عليها أكثر من ألف عام ...

قلت له بهدوء وابتسام :

ــ نحن نستكتبه من أجلك ...

فبدت عليه الدهشة وقال :

ــ من أجلى أنا ؟!

قلت :

ــ طبعا .. من أجل أن تقوم برسالتك على خير وجه .

فقال مستغربا :

ــ ما هذا الكلام ؟!

قلت له :

ــ ما هى رسالتك ؟.. أليست هى إمداد الهيهاوى وأمثاله بأفكارك الجديدة ؟.. ولكى تضمن اطلاعه على أفكارك يجب أن يكون موجودا هنا لجوارك ... وجوده ضرورى حتى تستطيع أنت أن تقوم بمهمتك .. ولو كانت كل العقول والأفكار مثل عقلك وفكرك فما الضرورة لكتابتك ... أنت تكتب لأمثال الهيهاوى ... فأنت موجود لأنه هو موجود ... فدعه يعرض أفكاره القديمة ، وحاول أنت أن تصلحها بأفكارك الجديدة ...

فأطرق قليلا وبدا عليه الاقتناع .. وقال بلهجة مترددة :

ــ أتظن مثله يمكن أن يصلح ؟!

قلت له :

ــ رسالتك هى إصلاح العقول ... وليس عليك أن ينصلح فلان أو لا ...

قال :

ــ نحاول ...

وخرج ... وقد هدأت نفسه ...

وبعد يوم ، جاءنى محمد الهيهاوى يصيح :

ــ هذه كبرى الكبائر وقمة المهازل والمباذل !.. تستكتبون فى مجلتكم الرسمية ، وفى بلاد إسلامية هذا الزنديق المتحلل المدعو سلامة موسى ؟... هذا كفر مبين ..

والله .. والله .. لن أكتب فيها حرفا بعد اليوم إذا تركتم هذا الشخص يكتب بجوارى ..

قلت له :

ـــ اجلس واهدأ قليلا ... واسمع رأيى ... أنت رجل حجة فى الدين ولك أسلوب عربى مبين ... وإذا لم تكن رسالتك هى إلقاء نور الإيمان فى صدور الزنادقة ، فلماذا تكتب إذن ؟.. نحن نستكتب سلامة موسى إلى جوارك حتى يستطيع نور إيمانك أن يصل إليه وينفذ إلى قلبه ...

ـــ أهذا قصدكم ...؟

قلت :

ـــ بدون شك .. وأنت خير من يعرف أن رسالات الرسل إنما قصد بها هداية الضالين ... ولو كان كل الناس مهتدين لما كان هناك لزوم لنزول الرسل والأنبياء ...

قال :

ـــ هذا صحيح :

قلت على الفور :

ـــ إذن يجب أن يكون إلى جوارك سلامة موسى كى تهديه ...

فقال وهو يهز رأسه :

ـــ والله هذا لن يهديه ألف نبى ...!

قلت له :

ـــ أنت ما عليك إلا أن تكتب والهداية من عند الله ...

قال :

ـــ صدقت ... ولكنه يكابر ويجادل ....

قلت :

ـــ جادله أنت أيضا ... ولتكن المجادلة بالتى هى أحسن ... إن الإسلام ، كما تعلم يعترف بالجدل ولا ينفيه .. ولا يشترط إلا أن تجادلوا بالتى هى أحسن ، أى بغير عنف ولا فحش ...

قال مصادقا :

ـــ حقا .. تلك هى آداب المجادلة فى الإسلام ...

قلت له :

ـــ هذا إذن دليل على أن المجتمع الإسلامى الحقيقى كان يعرف رحابة الصدر ، ولا يعرف الإرهاب والإكراه والخنق لآراء الآخرين ...

قال مسترسلا :

ـــ هذا حق .. ولو أراد الله أن يجعل الناس أمة واحدة وفكرا واحدا لفعل ... ولكنه ـــ سبحانه وتعالى ـــ عدد الأمم ونوع الأفكار ...

قلت مضيفا :

ـــ ومن تنوع الأفكار واختلاف الآراء واحتكاكها وتعانقها تتوالد الحقائق المضيئة ... وقد تجد عند سلامة موسى بعض ما ينفعك ويرضيك ، وقد يجد هو عندك بعض ما ينفعه ويرضيه ... فلا يوجد عند أحد الشر كله أو الخير كله ... فليحاول كل منكما أن يعرف ما عند الآخر ... أما الإصرار على الابتعاد عنه والجهل به فهو العمى .. ولا يصح لإنسان عاقل أن يفقأ عينيه بيديه حتى لا يرى ما عند الآخر .. ادرس ما عند الآخرين وتخير منه ما ينفعك ...

قال :

ـــ وهل عند بلشفيكى ملحد مثل سلامة موسى نفع أو خير ؟! (كلمة بلشفيكى وبلشفية كانت الشائعة وقتئذ أكثر من كلمة ماركسية أو شيوعية) ...

قلت له :

ـــ ها أنت ذا تجهل ما كان يجب أن تعلمه ... إن سلامة موسى ليس ملحدا ، بل هو مسيحى مؤمن .. وقد أهدى إلى كتابا نفيسا مجلدا أحسن تجليد .. هذا الكتاب قد يدهشك أن تعلم أنه « الكتاب المقدس » ... وكان يجب أن أهدى إليه بدورى نسخة فاخرة من القرآن الكريم ...

قال :

ـــ عجيبة ...!

قلت :

— أرأيت ؟.. إن الجهل بالآخرين آفة الآفات ... ولعلك تعرف أن من خيرة المسيحيين من درس القرآن لينتفع ببلاغته ، ومن المسلمين من قرأ التوراة والأناجيل لينتفع بعبرها ، دون أن يكون فى ذلك مساس بعقيدة طرف من الأطراف .. يجب أن نفتح العقول لكل هواء ونور ولا نخشى شيئا ... فالصحة كل الصحة ، لا يمكن أن تكون بغلق النوافذ ... إن أول ما يقوله طبيب لمريض هو : افتح النافذة ليدخل لك الضوء والهواء ...

قال بعد إطراق :

— على كل حال ... نحاول ...

وانصرف ...

وجاءنى رئيس التحرير بعد أيام ، فبادرته بقولى :

— هل زال عنك الصداع ...؟

فقال باسما :

— زال والحمد لله .. كل واحد منهما يأتى حاملا مقاله فأتسلمه منه ويمضى فى هدوء ... ماذا حدث ...؟

قلت له :

— حدث أن كل واحد منهما عرف حقه وحق غيره فى التعبير عن رأيه ... أنت أيضا عليك أن تعرف شيئا ...

— ما هو ؟

— هو أن تذكر كل من يكتب عندك أن يكون الجدل والحوار بين الجميع فى إطار الاحترام المتبادل ، بعيدا عن المهاترات ، مرتفعا عن التجريح الشخصى ، وإلا فقدت حرية الرأى والتعبير الكثير من قيمتها وجلالها .. آداب الحوار والجدل أن يكون ذلك بالتى هى أحسن ...

* * *

تحضرنى من صور الحوار والجدل كذلك ما كان يحدث أمامى فى جلسات

الحاكم ... كنت ألاحظ ذلك المشهد العجيب : مشهد طرفين متناقضين تمام التناقض ، طرف يطلب رأس متهم ، وطرف يطالب ببراءته .. أيوجد تناقض أكثر من هذا ؟.. ولكن الحوار والمساجلة والمجادلة بين الحجج والأدلة هي التي تشد اهتمام الجمهور الحاضر فى الجلسة .. جمهور يبدو عليه أنه يشارك بفكره ويزن بعقله وهو يصغى إلى شهود الإثبات وشهود النفى ، أى إلى الشيء وضده .. وكأنه يشعر فى قرارة نفسه بأن مداركه العقلية تتسع برؤية الأشياء من زواياها المتعددة ، إذ لا شيء يضيق الذهن غير رؤية الشيء من زاوية واحدة ...

* * *

لعل من أمتع الكتب وأنفع المطالعات التى أذكرها فى صباى ، ما كان للجاحظ فى « المحاسن والأضداد » ... كتاب علمنى رؤية الشيء وضده .. ولم يزل باقيا عندى حتى اليوم بجلدته القديمة ، وعليها بخطى وبالحبر القديم اسمى مع عبارة « سنة أولى — فصل أول » .. من المدارس الثانوية بالطبع .. ولعل ملازمة هذا الكتاب لى طوال هذا الزمن ، إنما ليذكرنى دائما بدرسه الأول : إن لكل عملة وجهها الآخر ، وإن المعرفة لا تتم إلا بالإحاطة بما نراه من الأشياء وما لا نراه ، ما نحبه منها وما نكرهه .. لأن مزاولة المعرفة الشاملة لمختلف جوانب الأشياء هى الطريق إلى العلم بمفهومه الحديث .. ولا عجب إذا رأينا العلم بهذا المفهوم قد عرفته ومارسته الحضارة الإسلامية فى ازدهارها الخلاق ، وقد وجدت فيها عقول فاحصة ، متحررة ، متحركة متفتحة على كل جوانب المعرفة ، مثل عقل أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى .. إن كتابه « المحاسن والأضداد » ، ما هو عندى فى حقيقة الأمر سوى نوع آخر من « الجدلية » جسدت ، ربما لأول مرة ، فى نطاق الصور الأدبية .. لكن تبقى له بعد ذلك مهمة أخرى هى أنه يغرس فى النفس الإدراك العميق بقيمة الجدل والحوار فى صنع التفكير الإنسانى فى مجتمع مؤهل لبناء حضارى ...

الملوك والرؤساء فى دولة الشعر

كان احتفال هارون الرشيد بالشعراء قد جعل منه أحسن متذوق للشعر وخير راوية له .. وكانت صداقة شاعر الألمان جوته لشارل أوجست ، دوق فيمار قد جعلت هذا العاهل يقرض الشعر .. ولم أكن أتوقع فى عصرنا الحاضر المملوء بالمشكلات المعقدة أن يفرغ رئيس دولة لقرض الشعر إلى أن تسلمت فى عام ١٩٧٨ ديوانا مطبوعا مرفقا به هذا الخطاب من سفيرنا فى مالطة آنذاك الأستاذ صلاح الدين عابدين هذا نصه :

« يسعدنى أن أبعث رفق هذا بنسخة مترجمة إلى اللغة العربية من ديوان الشعر (قبس المصباح) الذى قام بتأليفه الدكتور أنطون بوتيجيج ، رئيس الجمهورية المالطية . وقد أهدى لسيادتكم هذه النسخة بخط يده ورجانى إرسالها لكم .. » .

ثم تسلمت بعد ذلك بتاريخ ٢ / ١٢ / ١٩٧٨ من نفس السفير خطابا آخر هذا نصه : « إلحاقا بكتابنا رقم ٢٥٨ فى ١٤ / ١٠ / ١٩٧٨ المرفق به نسخة من كتاب « قبس المصباح » أتشرف بالإحاطة بأن المستر أنطون بوتيجيج رئيس الجمهورية المالطية قد استفسر منى أكثر من مرة عما إذا كان هناك أى تعقيب أو تحليل لمقتطفات الشعر فى كتابه ، وأنه يسعده أن يتلقى آراء سيادتكم حول الأفكار التى تضمنها كتابه المذكور .. » .

وعلى الرغم من هذين الخطابين فقد ظلت هذه النسخة لهذا الديوان بعيدة عن نظرى لظرف قاهر : هو أن تاريخ وصولها فى ١٤ / ١٠ / ١٩٧٨ كما جاء فى خطاب السفير كان قبل وفاة ابنى الوحيد بعشرة أيام . فلقد لفظ النفس الأخير فى ٢٤ / ١٠ / ١٩٧٨ وكنت أعيش هذه الفترة فى مأساة الصراع بين المرض والموت .. واليوم وقد من الله تعالى على بالصبر والامتثال لقضائه سبحانه ، فقد وقعت يدى على نسخة الديوان ، وقرأت فى المقدمة أن الشاعر رئيس الجمهورية قد ابتلى هو أيضا بفقد

عزيز عليه هى زوجته بعد أن تركت له ثلاثة أطفال .. وكتب فى ذلك شعرا نشره فى ديوانه ، مس قلبى بصدق إحساسه وجمال تعبيره ، وأبدأ بقصيدته تلك التى عنوانها « وفاة الرفيقة » ، فقد ابتليت أنا أيضا بوفاة الرفيقة بعد أن تركت لى ولدا وبنتا ، ولم يلبث الولد أن لحق بها بعد عام .. وهذه هى القصيدة :

« وفاة الرفيقة »

طائران ـــ ذكر « الضفنج » وأنثاه
كانا يحلقان فى غابة جميلة
وبينما هما يجنحان فى سعادة بين الأشجار
كانا ينقضان لالتقاط الديدان لإطعام فرخيهما
وفجأة سمعت طلقة ... الشظايا لطخت الأوراق بالوحل
لقد أصيبت أنثى الضفنج فى صدرها
وهوت ميتة فى مياه النافورة
تمزق قلب الزوج .. ومع ذلك فقد كان
عليه أن يعود وحيدا إلى العش

...   .

ثم ما جاء فى قصيدته « فى ميدان سان مارك بفينيسيا البندقية » :

حالما وصلت إلى « فينيسيا » ذهبت إلى الساحة أمام كنيسة « سان مارك » وفورا أبصرنى الحمام استقبلنى مرحبا ؟! ابتعت بعض الذرة وأخذت فى إطعامه . وحطت حمامة بيضاء على كفى . خاطبتنى : لقد عرفتك منذ ثلاث سنوات . ولقد أخذت مع زوجتك صورة تذكارية فى هذا الميدان . ولقد أكلت ، إذا كنت تذكر ، من يدها .. فلماذا تأتى اليوم وحيدا ؟؟ أخبرنى .. ماذا حدث ؟ رفعت بصرى إلى السماء لأفهمها بالإشارة أن زوجتى قد رحلت إلى الجنة لتلحق بملأ السعادة الأبدية . عند هذا ابتسمت الحمامة بعذوبة . وهزت رأسها كأنها أرادت أن تقول لى : إيه لطالما

التقيت بها هناك فى عليين ...

وقال أخيرا فى قصيدته :

« المقبرة »

أنت مدفونـــــه فى فؤادى
بمقبرة الذكريـــــــات
وأنــــا بين الحين والآخر
آتى لأزور ضريحك
وأنتـــحب وحيـــــدا

هذه النبضات الشاعرة النابعة من قلب رجل عمله فى الحياة السياسية .. والسياسة شيء لا قلب له ، لابد أن تكون وليدة طبيعة شعرية لا سبيل إلى كبتها بأحداث الحياة وما يموج فيها من أضواء وألوان وأحاسيس . إنها طبيعة الشاعر وكفى .. وهكذا وصفها فى قصيدته :

« شاعر »

إنسان متميـــــــــــز
هكـــــذا خلقنـــــى الله
أحس أكثر من الآخريـــــن
بروعـــــة السمـــــاء
بهيجـــــة زرقـــــاء
وأكثر من الآخريـــن أحس
بروعـــــة الأحـــــزان

ثم ما جاء فى قصيدته :

« المزمار »

الحيـــاة بأفراحهـــا وأحـــزانها
جعلتنـــــى شاعــــرا
تمـاما مثلمـا يدا الفنـان الصنـاع
تثقبـــان الخشب وتحفرانـــه
لتصنعـــا مزمـــارا
لقـــد توجـــعت
لأن فؤادى ليس جامـدا كالخشب
إنــــه يحس الألم
ولكـن يا لها من سعـادة عنـدى
عندمــــا أحس
بأنامــــل الشعــــر
تداعب أوتـــار قلبــــى
وأشعــــر بأنفـــاسه
تهب عليــــــه

وعندما يدع رجل الدولة كل ما فى يده من جاه وسلطان ليهرع إلى الشعر عندما يسمع نداءه ندرك سطوة الشعر ، ونفهم طبيعة الشاعر الحق .. وهذا ما نجده فى قصيدته التي عنوانها :

« إلى الشعر »

يا شعـر .. عدمـا تدعـونى
يدع فؤادى كل شيء جانبـــا
وينطلــــق من صدرى

باسطـا أجنحتـه البـيضاء
فيختـــرق نور الشمس
ما بين البحـر والسمـاء
كأنـه يمامـة جزلى
ويـأتى .. ليقعـد فى أحضانك
فى مكـان لا أعرفـه
من دنيـا الإشراق الرائعـة
أيها الشعـر
وبعد أن تكون قد لاطفت فؤادى
يعـود .. ويدخـل صدرى ثانيـة
لكى يواصل تجرع مرارة الحياة !

وفى ختام ديوان السياسى الشاعر المفعم بأجمل الأضواء والألوان فإنه يؤسفنى عجزى عن عرضها كاملة ، كما نأسف دائما لعجز اللغة أى لغة عن ترجمة الشعر ، مهما يبلغ اجتهاد المترجمين . فالشعر ضوء ونغم ينطلق من منبعه طليقا ويضيع أكثره إذا تدخل الوسيط .. إنه المصباح الذى يضئ بنور الفكر والحب والإيمان ... ولقد قالها رئيس الدولة الشاعر فى قصيدته الموجزة المضيئة :

« المصباح »

قالت الشمس ..
إنى أكاد أغـرق وأزول
من سيضئ بعـدى؟ من؟
صمـتت كل الأفـواه
فقـط تكلـم المصبـاح
لا تخافى يا شمس

سأضئ الدنيـــــــا
بـــــدلا منـــــك

وهكذا نعيش مع رئيس دولة بعيدا عن مشاكل الدول الأرضية متمتعين بفضائل دولة الشعر التى يسود فيها الصفاء العلوى ، صفاء الحب والإيمان .

وهنا أيضا تنسمنا عبير هذه الدولة الروحية فى بعض المعانى التى كتبها رئيس دولة أخرى هى دولتنا فى كتاب السادات « البحث عن الذات » .. هذه المعانى التى تصدر من نبع الشعر وإن كانت من النثر . فالشعر روح قد يتجسد فى نثر كما يتجسد فى نظم .. كتب يقول :

« .. ما معنى الإيمان ؟ أن تنظر إلى شيء كريه يحدث على أنه قدر لا بد من مواجهته وتحمله .. وبعد ذلك تتغلب على الآثار الناجمة عن هذا .. فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة لأن الحل دائما هناك .. ما الذى يجعلك تفكر هكذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دورا يجب أن تؤديه فى هذه الحياة .. والإلٰه الذى خلقك ليس شريرا على الإطلاق ... بالعكس إنه خيِّر حدا .. ولذلك فالعلاقة المثلى بين الإنسان والله لا تنبنى على الخوف أو على الثواب والعقاب .. بل على قيمة أسمى من كل قيمة .. وهى الصداقة .. فمن صفات الخالق الرحمة والعدل والحب . ثم هو قادر على كل شيء ، لأنه مصدر الأشياء جميعا . فإذا اتخذت منه صديقا منحك الاطمئنان .. فتحت أية ظروف وفى جميع الأحوال تحبه ويحبك .. من أجل هذا .. ولأنى أصبحت مليئا باليقين والاطمئنان لم أهتز لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحل العمر .. ولم يخذلنى الحب مرة واحدة .. بل كان دائما ينتصر فى النهاية .. »

قول يكاد يصدر من النبع الذى صدر منه شعر رابعة العدوية عندما أنشدت فى الله :

أحـــــبك حبين حب الهوى
وحبــــا لأنك أهـــــل لذاكا

فحب الله الحقيقى هو المجرد عن انتظار الثواب أو مخافة العقاب .. هو حبه لذاته

العلية المتجلية فى هذا الخلق الرائع لكونه .. وهو الحب الذى نبع من العقل والوجدان لكل عالم وفنان .. الكل يحسب أدواته : العالم بالفكر والشاعر بالكلمة والمصور باللون والمثال والمعمارى بالحجم والموسيقى بالنغم .. ويجمع كل هؤلاء رباط واحد : هو الشعر .. ولكل هؤلاء أصدقاء ورعاة من رجال الدولة الذين منحوا هم أيضا العقل المتسع والإحساس المرهف فعاشوا فى رحاب دولة الشعر ، وارتفعوا فى سماء هذه الدولة عن كل سلطان دنيوى زائل .

ولقد حدث للموسيقى وعازف البيانو الشهير بادرفسكى أن أنتخب رئيسا لجمهورية بولونيا عام ١٩١٩ وذهب بهذه الصفة لحضور مفاوضات معاهدة فرساى ، فاستقبله بالدهشة رؤساء الدول العظمى المجتمعون لاقتسام مغانم الحرب ، وصاحوا قائلين :

« ما الذى جاء بهذا الفنان العظيم بيننا » ؟! يا له من انحدار يا سيدى !! نعم .. لقد شعروا أن الفنان انحدر من سماء فنه العلوى إلى مستوى السياسة الأرضية .. ذلك أن الخالد المرتفع هو ما يلهمه الشعر من أفئدة البشر من الإيمان والحب والسلام ..

* * *

هل بلادنا مثقفة ؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نضع مقياسا ثابتا مثل مقياس الحرارة ، نعرف به متى يكون الجسم صحيحا ومتى يكون عليلا ؟ وهذا المقياس فى الثقافة والحضارة هو عندى اسمه « دائرة المعارف » . فالبلاد التى تعتبر مثقفة متحضرة مثل إنجلترا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا وروسيا واليابان إلخ .. كل منها له دائرة معارف بلغة بلده . أما بلاد العرب ومنهم مصر فليس لها فى عصرنا الحاضر دائرة معارف كبرى فى لغتها العربية . مع أن العرب يوم كانت لهم حضارة معترف بها كانت لهم دوائر معارف فى لغتهم العربية لا يوجد لها مثيل فى اللغات الأخرى المعاصرة لهم .

فمنذ أكثر من ألف عام وضع الفارابى « إحصاء العلوم » . كما وضع ابن عبد ربه فى ذات القرن « العقد الفريد » المكون من أبواب عديدة ضمت معارف العرب وأخبارهم . وبعد ذلك بقرنين وضع النويرى دائرة معارفه « نهاية الأرب » فى ثلاثين مجلدا تشمل الإنسان وما يتعلق به والحيوان والنبات والطب والتاريخ إلخ .. فما الذى جعل العرب اليوم لا يملكون دائرة معارف عربية عصرية وهم الذين سبقوا بلاد العالم وقتذاك فى هذا المجال ؟.. هذا السؤال يجب التفكير فيه وإلقاؤه على أنفسنا . ولعل الجواب هو أن الجسم الصحيح له مظاهر صحة والجسم العليل له مظاهر علة . وكذلك الحال فى الحضارة والتخلف . ويوم كان العرب متحضرين مثقفين كان من مظاهر حضارتهم وثقافتهم ظهور دوائر المعارف فى لغتهم .وعندما تخلف العرب ظهر التخلف فى خلو لغتهم العربية من دائرة معارف تضم نتاج عقولهم وقلوبهم فى ماضيهم الزاهر والعصر الحاضر فيما أنتجته الإنسانية كلها من ألوان المعرفة الشاملة ... والإحاطة بالمعرفة الشاملة معناها التقدم ، كما أن القصور عن المعرفة معناه التخلف . ولنترك الآن الكلام فى أسباب تخلفنا فهى قصة معقدة وتاريخ طويل . ولنحصر كلامنا فى أحوالنا الحاضرة وعالمنا المعاصر . فإذا قلنا أن دوائر المعارف اليوم تحتاج إلى مال

لإنشائها ، وبلادنا العربية فقيرة ، فما القول والكثير من بلادنا العربية اليوم يملك الأموال الطائلة من الموارد البترولية والمعدنية وغيرها ؟ إذن ليس نقص المال الآن هو العقبة . ولأترك لغيرى البحث عن العقبة وأسرع إلى الحل . وإذا رجعنا إلى تاريخ دوائر المعارف وكيف أنشئت ، نجد أنها الهمة الذاتية وليست الهمة الحكومية . فأيام العرب الزاهرة كان الفرد وحده بجهده وصبره هو الذى ينتج هذا العمل الضخم . وفى العصر الحديث هى الشركات والجمعيات التى تدير الأموال وتنظم الأعمال لإنتاج دوائر المعارف الشاملة لكل فروع الجهد العقلى والوجدانى وقد اتسع محيطها هذا الاتساع المذهل... ولو اتحد العرب واهتموا بهذا الأمر بعض اهتمامهم بالسياسة لنهضوا النهضة الحقيقية التى تعيد إليهم ما سلف من مجدهم الحضارى ، ولأصبح لكلمة « العروبة » معناها العميق المشرف ، ولم تكن مجرد شعار سطحى أجوف .. لهذا كتبت يوما متمنيا أن تقوم « الجامعة العربية » على أساس ثقافى ، وليس على مجرد أساس سياسى . والله نسأل أن يحقق لنا هذه الأمنية فى يوم قريب ..

* * *

هل انتهى عصر الفلسفة ؟

منذ أن انفصل العلم عن الفلسفة وسار بنفسه فى خطى وئيدة ، ثم انتفض فى القرن التاسع عشر بقوة ، إلى أن وثب فى قرننا الحاضر وثبته الكبرى ، كانت الفلسفة باعتبارها المصدر الرئيسى للمعرفة العقلية آخذة فى التباطؤ كلما أخذ العلم فى الإسراع .. وبعد أن كانت الفلسفة وحدة مكتملة تفتتت إلى عناصر منفصلة ، ارتبط كل عنصر منها بفرع من فروع المعرفة ، فأصبح هناك ما يسمى فلسفة العلم وفلسفة الفن وفلسفة التاريخ وفلسفة القوانين وفلسفة الاجتماع ، ونحو ذلك .. فهل الفلسفة بمعناها القديم باعتبارها وحدة قائمة بذاتها يمكن أن توجد مرة أخرى بهذا الوصف والكيان فى عصر العلم الكبير ، كما وجدت من قبل ومهدت للعلم ؟.. وهل العلم اليوم فى حاجة إلى الفلسفة ؟ وهل العلماء اليوم يطلعون على الفلسفة ويعتبرونها مصدرا للمعرفة ، أو مجرد تنشيط ذهنى ؟.. كما أن الألعاب الرياضية مجرد تنشيط جسمى ... فالذهن هو الآخر فى حاجة إلى منشط . فهل الفلسفة اليوم قد تغير وجه الانتفاع بها . فلم تصبح كافية لتزويدنا بما يزودنا به العلم من الحقائق ، واقتصرت مهمتها على تنشيط الذهن إلى جانب الألعاب الرياضية لتنشيط التى تنشط الجسم . ولذلك قد تكون مهمتها أكبر عند الشباب وعامة الناس ممن هم فى حاجة إلى تدريبات لتكوين العضلات المفكرة ... هل هذا صحيح ؟.. أو أن الفلسفة لم تزل ضرورية لأن مجالها مختلف عن مجال العلم ؟.. عندئذ يجب علينا أن ننظر فى مجال كل منهما. وقد نهتدى إلى ذلك بتحديد المهمة وتوجيه السؤال . فالسؤال عند العلم هو : « كيف » ؟.. والسؤال عند الفلسفة هو : « لماذا » ؟ فمثلا نحن نسأل العلم : « كيف نعيش » ؟ فى حين أننا نسأل الفلسفة سؤالا آخر ليس من اختصاص العلم أن يجيب عنه وهو : « لماذا » ؟.. « لماذا نعيش » ؟.. وهذا السؤال « لماذا » ؟.. هو من خصائص الإنسان وحده . وبغير « لماذا » لا تقوم الإنسانية .. أما الحيوان فإذا سئل :

« كيف تعيش أو تحيا » ؟ فإنه بغير نطق وبواقع الحال فقط يدلنا على أن كيفية العيش والحياة عنده هى « الطعام والهواء » والعلم البشرى يدلنا على نفس الإجابة لكن بالمنطق والبحث المعملى . أما السؤال عن غاية الحياة ولماذا نعيشها ؟.. فلا يمكن للحيوان أن يجيب عن ذلك . لقصور وجدانه كما أن العلم لا يمكنه ذلك . لعجز آلاته ومعامله .. لابد من الإنسان إذن بتوهج عضلة عقله وإشعاع نور قلبه ، مما فتح له الطريق إلى الدين والفن .. عالم علوى لا يعرفه الحيوان ... عندئذ تكون الفلسفة مقترنة بذات الإنسان .. ومهما يتقدم العلم فإن الإنسان لن يكتفى به .. لأن الإنسان طالما هو إنسان سوف يظل يسأل « لماذا » ؟ وبهذا اللفظ الصغير تعيش الفلسفة ..

* * *

ما هو الفكر ؟

ما هو المقصود بكلمة الفكر ..؟ وهي كلمة تناولتها تعريفات وشروح وتفسيرات . ولكن أبسط ما أقول فيها هو أنها تعنى تأمل الأشياء بالعقل للوصول إلى المعرفة . ومن يمارس ذلك نطلق عليه وصف « المفكر » . والمفكر وصف واسع شامل لأنماط عديدة من الناس . فالفيلسوف مفكر . والعالم مفكر . والأديب مفكر . والفنان مفكر . والمخترع والمهنى وكثيرون آخرون كلهم يشتركون فى صفة التفكير . على أن كثيرين أيضا يؤدون أعمالهم بغير ذلك النوع من الفكر الذى نخص به من نطلق عليه اسم « المفكر » .. أولئك هم الأغلبية الغالبة يؤدون أعمالهم بتفكير مسبق صنعه لهم المفكر ورسمه وشق لهم طريقه فساروا فيه دون تأمل أو مناقشة . وهذه الأغلبية الغالبة هى التى تسعى الدول المتحضرة إلى تزويدها عن طريق الثقافة بقدر من النضج العقلى يمكنها من تأمل الأشياء وفحصها ، ليخلصها من الانقياد الأعمى للفكر المصنوع الجامد داخل تعريفات وشعارات . ولقد قلت ذات يوم أن مهمة « المفكر » الحق ليست فى توجيه الرأى العام ، بل فى خلق الرأى العام . لأن التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة وفى هذا التوجيه من المفكر انتصار لرأيه ، ولكنه فى ذات الوقت خذلان لآراء أخرى جديرة بالنظر . إن المفكر فى نظرى رجل تكوين وتربية وخلق لا رجل سيطرة وانتصار ، فهو لا يجب أن يلبسك رأيه ، بل يجب أن يخلق فيك رأيك .. وإذا بقائل يقول : « إنك تفترض أن الناس جميعا قابلون أن يكونوا أحرارا ، وننسى أن أغلب الناس لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى ... إنما هم يستسهلون ارتداء الآراء التى تصنع لهم صنعا .. » . وهنا حقا المشكلة ، وإنها لتتفاقم باتساع نطاق الحضارة .. وهو تناقض عجيب . فنحن نريد من الحضارة أن تنضج العقول لتفحص الآراء فإذا هى قد تؤدى إلى العكس . فإن الكسل والسرعة والسهولة وغيرها مما يقترن بتكنولوجيا الحضارة تشجع الناس على طلب الآراء المصنوعة كما يطلبون

السيارات والملبوسات وأجهزة الإذاعة والتليفزيونات ، ويقبلون هذه الآراء باسترخاء ممن يحسن صنعها لهم وتقديمها إليهم فى صناديق مجهزة مبسطة ... هنا حقا المشكلة . وهنا تزداد الضرورة لوجود المفكر المحرر الذى يذكر الناس دائما بأن يفحصوا ويحللوا ويناقشوا ما يقدم إليهم من ملبوسات الآراء الجاهزة ومصنوعات الشعارات الموضوعة . وأن لا يقبلوها إلا بعد أن تمر من مصفاة العقل والمنطق والاقتناع التام ..

* * *

الرحمــة

أذكر أنى قرأت فى الماضى عن « أناتول فرانس » أنه سئل عن السمة الغالبة فى سمات الأدب العظيم ، وتوقعت أن يجيب بأنه الأسلوب أو التعبير أو الموضوع .. ولكنه لدهشتى أجاب : إنه الرحمة ...

ومضت الأعوام .. وقرأت فى كتب تراثنا صورة لو اطلع عليها ذلك الكاتب الفرنسى العظيم لأدرك معنى ما أجاب به على نحو يثير فيه العجب والإعجاب . تلك الصورة هى ما كانت تتعلق بقتل العرب لبناتهم فى الجاهلية بدافع الحمية . فقد روى أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ كان لا يزال مغتما بين يدى رسول الله ، فقال له : « مالك تكون محزونا » ؟ فقال الرجل « يا رسول الله إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لى وإن أسلمت » فقال له النبى : « أخبرنى عن ذنبك » فقال : « يا رسول الله ، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لى بنت فتشفعت إلىّ امرأتى أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها . فدخلتنى الحمية ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج ، فقلت لامرأتى : « إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى . فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلى ، وأخذت على المواثيق بألا أخونها ، فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت فى البئر ففطنت البنت أنى أريد أن ألقيها فى البئر ، فجعلت تبكى وتقول : « يا أبت إيش تريد أن تفعل بى ؟ » فرحمتها . ثم نظرت فى البئر فدخلت على الحمية فجعلت بنتى تقول : « يا أبت لا تضيع أمانة أمى » .. فجعلت مرة أنظر إليها فأرحمها ومرة أنظر فى البئر .. حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسة ، وهى تنادى فى البئر « يا أبت ، قتلتنى » .. فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت » .. فبكى رسول الله ﷺ وصحابه وقال : « لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك » ..

وبكيت أنا أيضا .. وتمثلت لى دموع رسول الله النابعة من رحمته .. وفطنت إلى الصفة التى وصف الله تعالى بها نفسه : « الرحمن الرحيم » وهى العبارة التى نكررها فى كل ساعة غير مبالين : « بسم الله الرحمن الرحيم » دون أن نقف عندها مفكرين .. وهى فى الحقيقة من جذور ديننا ... ولقد تذكرت ذلك فى الغربة ، وأنا فى باريس فى أواخر الخمسينيات ، وكنت أقرأ كتابا قديما من كتب تراثنا جاء فيه هذا المعنى ، فوضعته فى شعر فرنسى منظوم كالآتى :

فى البدء خلق الله القلم

خلقه من النـور

وقال له : « اكتب » فتردد القلم وقال : « أكتب ماذا ؟ »

فقال الله له : « اكتب علمى »

ثم قال له أيضا : « اكتب لكل كائنات الأرض » :

« إن رحمتى سبقت غضبى » ..

* * *

وعلى ذكر الشعر خطر لى أنى قبل ذلك بأكثر من ثلاثين سنة كنت فى باريس كذلك وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت منذ قليل ، وظهرت مبادئ التحرر فى كل شيء . فى المجتمع والمرأة والسياسة والأفكار . وكان من نتيجتها على نحو محسوس ظهور المذاهب المتحررة فى شتى الفنون . ونشر أثناء وجودنا هناك « منفستو » « السوريالية » وبرز اسم أندريه بريتون ، ونشر وقتئذ فى الشعر أعمال « ماكس جاكوب » أحد مؤسسى مذهب الشعر « التكعيبى » كما شاع فى الجمهور التصوير التكعيبى على يد « بيكـاسو » و « براك » . والموسيقى كذلك ظهـر فيها اتجاه « سترافنسكى » و « بولنك » وفى المسرح « بيراندللو » إلخ إلخ .. كلها تنحو نحو التخلص من قيود القواعد الراسخة والانطلاق إلى التحرر من النظم والقوافى فى الشعر ومن الإيقاعات القديمة فى الموسيقى ومن دقة الرسم فى التصوير . هذا فى أوروبا . أما فى البلاد المستعمرة مثل مصر فكان التحرر متجها إلى السياسة وإلى الانطلاق من قيد الاحتلال . إلى أن كاد الاحتلال ينتهى فى بلادنا فبدأ التحرر يتجه إلى موضوع آخر .

فكان هو الشعر وتخليصه من القوافى . فظهر الشعر الحر على نسق ما حدث فى أوروبا قبل ذلك بنحو ربع قرن أو أكثر .. ولكونى عاصرت ظهور الشعر الحر فى فرنسا فى أول العشرينات فقد بدأت هناك بمحاكاته . وقد نشرت نماذج من ذلك فى كتابى « رحلة الربيع والخريف » . ورغم ذلك فقد لاحظت أن هذا الشعر وإن كان حرا حديثا عند الأوربيين فهو ليس حديثا عندنا . فاللغة العربية قد سبقتهم إليه بنحو أربعة عشر قرنا . فالقرآن الكريم فى الشكل هو شعر حر لم يعرفه العرب ولا غيرهم . وقد نشرت فى كتابى هذا نماذج من آيات شريفة رائعة فى شاعريتها المعجزة وموسيقى إيقاعها العلوية ، ولعجزنا عن اتخاذ القرآن الكريم هاديا ومرشدا فى الشعر الحر عندنا استسهل الكثير من الشعراء عندنا الالتفات إلى النموذج الأوروبى . لهذا كنت فى أواخر الخمسينات فى باريس وأنا فى سن الكهولة أكثر رغبة فى المذاهب القديمة المستقرة وجمالها الراسخ . ورأيت فى موسيقى النظم ما يطمئن القلب ويريح النفس أكثر من موسيقى حرة أشك فى مدى تأثيرها .

* * *

ولنرجع إلى ما قاله أناتول فرانس عن الرحمة فأذكر ما خامرنى من ريبة فى أن تكون ذاكرتى قد خانتنى ، وأن يكون هذا الكاتب ليس هو صاحب هذا القول ، فما أعرفه عن أناتول فرانس يظهره لى فى صورة أخرى تنطقه بقول آخر .. فقد سمعت من الدكتور محمد صبرى الشهير بالسربونى — وقد تعارفنا وتصادقنا أيام باريس فى العشرينات — أنه كان قد التحق بسكرتارية الوفد المصرى بزعامة سعد زغلول باشا عندما جاءوا باريس آملين فى حضور مؤتمر فرساى لعرض قضية مصر واستقلالها . فوجدوا الأبواب مغلقة فى وجوههم ، بل إنهم لم يجدوا صحيفة فرنسية واحدة تقبل مجرد نشر خبر عن حضور وفدهم مجاملة للإنجليز . وروى لى صبرى السربونى مبلغ ضيقهم بهذا التجاهل لهم ولبثوا فترة لا يدرون ماذا يفعلون .. وفى ذات اليوم كان يسير فى شارع سان ميشيل قرب حدائق اللوكسمبورج فى صحبة أحد أعضاء الوفد المصرى وكان فيما أذكر كما قال لى هو « عبد اللطيف بك المكباتى » .. وإذا به يرى أمامه « أناتول فرانس » يضع ذراعه فى ذراع شخص مصرى يعرفه من مدرسى اللغة

العربية جاء فرنسا لتعلم اللغة الفرنسية ، فكان كل ما شغله الجرى وراء فتيات باريس .. فوقف صبرى السربونى فى دهشة . وما إن انصرف « أناتول فرانس » وصار المدرس المصرى وحده حتى أسرع صبرى وانقض عليه وقال له : « انت عارف من اللى كان معك ؟ » فقال بكل بساطة : « واحد صاحبى » . فلما سأله « كيف عرفه ؟ » روى له أنه اعتاد المجىء إلى حديقة اللوكسمبورج عصر كل يوم لمشاهدة الجمال الباريسى ، فوجد فى نفس المكان هذا العجوز الفرنسى يأتى لنفس الغرض . ومع مرور الأيام تعارفا وصارا يجلسان معا جنبا إلى جنب على نفس « الدكة » الخضراء ، يتأملان فى إعجاب هذا الجمال الفتان فى القوام والسيقان التى خلقها الله تعالى متعة للعباد !.. فقال له صبرى السربونى .. « اسمع .. انت قاعد كل يوم مع أكبر كاتب فى فرنسا » فتعجب المدرس قائلا : « العجوز البصباص الخباص ده ؟! » .

ولبث السوربونى ومعه عضو الوفد يقنعان ذلك المدرس الغافل بموقف مصر وضرورة حضورها مؤتمر فرساى للمطالبة باستقلالها . وتجاهل الصحافة الفرنسية بتأثير نفوذ الإنجليز لوجود وفد مصر . ثم ختما كلامهما بقولهما إن كلمة صغيرة بقلم أناتول فرانس ـــ هذا الذى لا يعرف عنه سوى أنه عجوز بصباص ـــ يمكن أن تغير الموقف وتفتح لهم باب الصحافة والنشر .. وطلبا إليه خدمة للوطن أن يقدمهما إلى هذا الكاتب العظيم ... وذهب ذلك المدرس إلى مقعده فى الحديقة عصر اليوم التالى ، وانتظر حضور « أناتول فرانس » كالمعتاد . فلما حضر وأخذ ينظر حواليه ويسأل صاحبه المصرى عن الفتيات الجميلات ، نهض المدرس وخاطبه لأول مرة باحترام عميق قائلا له : « اغفر لى جهلى يا سيدى .. ما كنت أعرف أنك شخص عظيم ، لم أكن أعرف أنك أكبر كاتب فى فرنسا ! » فتغير وجه أناتول فرانس وأسف ، ومد يده مودعا وهو يقول لصاحبه البسيط وقد عرفه : « خسارة يا سيدى ! لقد انتهت صداقتنا ! » وذهب عنه وتركه وحيدا حائرا .. ولكن يبدو أن « أناتول فرانس » وإن كان لم يحاول لقاء هذا المصرى ثانية إلا أنه أخذ يهتم بمصر وموقفها وقتذاك . فلم يمض قليل حتى كتب مقدمة لكتاب « صوت مصر » مدافعا عن مصر واستقلالها ...

ولعل دافعه فى ذلك كان « الرحمة » . وإن كانت نوادره باقية فى ذهنى تصوره بالصورة الأخرى ... ومنها عزوفه عن المواقف الرسمية فى الأدب وغيره . فقد كان يرفض دائما قبول العضوية فى « المجمع الفرنسى » — وهو أكبر مجمع أدبى فى فرنسا يستقبل العضو الجديد فيه بالحرس الجمهورى وموسيقاه كما يستقبل كبار السفراء . وظل يرفض إلى أن توسل إليه ناشر كتبه أن يقبل عضوية هذا المجمع لأنه يتمنى أن يرى اسمه فوق كتبه مطبوعا تحته تلك العبارة المرموقة « عضو المجمع الفرنسى » .. ذلك أن المقرر فى هذا المجمع من قديم أن العضو فيه يجب عليه حتما فى كل كتاب أو مقال ينشره أن يضيف إلى توقيعه عبارة « عضو الأكاديمية الفرنسية » . وعندما كان يظن أحد عظماء الأدباء أنه أكبر شأنا من التشرف بالانتساب إلى المجمع بهذه العبارة كان يقول له : « ... ولكن المجمع من حقه أن يتشرف بانتساب عظماء الأدباء إليه .. » ومن كان يرفض ويأنف ويتعالى فما عليه إلا أن يبتعد عنه .. وهكذا ظل أناتول فرانس بعيدا حتى ألح عليه ناشره ، وعندئذ قبل عضوية المجمع كرامة لخاطر الناشر ! ولكنه لم يضع قدمه فى هذا المجمع . وإن كان اسمه ينشر مقترنا بهذه العضوية فى كل كتاباته على الرغم منه ... ولم يتخل أناتول فرانس عن عادته وسلوكه فى ملاحقة كل حسناء بنظرات الإعجاب .. إلى أن كان يوما فى إحدى الحدائق العامة وقد ضبطه حارس الحديقة يعاكس أو يغازل إحدى الحسان ، فاقتاده إلى مركز الشرطة . وهناك قابله ضابط « النقطة » بالتجهم والاستنكار لأمر هذا العجوز المخرف الذى « يعاكس » الفتيات .. وسأله عن أسمه فأجاب .. « أناتول فرانس » ?! فاستفسر منه الضابط « عضو الأكاديمية الفرنسية » ؟؟ فلما أجاب بنعم ، نهض الضابط باحترام وحياه وأكرمه غاية التكريم وودعه بتحية الشخصيات الكبيرة المحترمة .. فخرج « أناتول فرانس » يقول لنفسه بدهشة : « ما كنت أظن أن عضوية الأكاديمية لها هذه الفائدة !.. » .

إذن ... الرحمة هى فى أعماق القلب .. هى كالذهب فى أغوار التراب .. هى شىء أقوى من مظاهر السلوك وأبقى من توافه النزعات ..

* * *

طعام الوجدان

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان ولكن إلى جانب طعام الفم لابد من طعام الوجدان

ما الذى يفعله الإنسان فى طفولته بعد أن يترك ثدى أمه ؟ إنه بالطبع يحبو . أى يبدأ فى استخدام يديه وقدميه للتحرك ثم للعب . وليس الطفل وحده هو الذى يلعب . صغار الحيوان أيضا تلعب . ولكن اللعب عند الحيوان هو لمعرفة قدراته العضلية . أما عند الإنسان فهو لاكتشاف ما حوله من أشياء . وهذا اللعب فى مرحلة الطفولة هو المنبع الأول للفن . فالفن فى مظهره لعب . أى نشاط لا يقصد به الأكل والشرب ولا المنفعة المباشرة . ولكنه فى جوهره اكتشاف . ولهذا كانت أهمية الفن . إنه اكتشاف الإنسان لحياته عن طريق الوجدان . فالإنسان الأول بعد أن صاد الجاموس الوحشى وتغذى بلحمه أخذ فى رسمه على جدران كهفه . ثم أخذ الرسم ينمو والتصوير يتطور حتى وصل إلى إبداع رفاييل وأقرانه من عظماء الفنانين . وفطنت البشرية إلى أن الفن طعام ضرورى لتغذية الوجدان الإنسانى . فالوجدان يظل نائما حتى يهزه الجمال أى الشعور بتناسق الخليقة . ومع الشعور بالتناسق فى الخلق تنمو عند الإنسان الرغبة فى معرفة الخالق . ثم يفتح الباب أمامه للبحث فى قوانين الوجود . إذن من الضرورى لكى يكون الإنسان إنسانا متميزا عن الحيوان أن يتغذى بطعام الوجدان إلى جانب طعام الفن . ولعل من أيسر هذه الأطعمة وأقربها إلى مدارك الطفل والصبى وجود عمل جميل من أعمال الفن ، يوقظ فيه بالتناسق البديع فى الخطوط والألوان وجدانه النائم . إنها مسئولية الأم مربية الطفل فى البيت أن تضع تحت عين طفلها عملا جميلا فى صورة لوحة بديعة ، ثم هى كذلك مسئولية المدرسة أن تزين جدرانها بلوحات

جميلة . بل مسئولية الدولة فى أن تزين ميادينها وحدائقها العامة بروائع فن النحت ، حتى تظل عيون الشعب متصلة بالجمال فيزود عنه ويحميه من كل تخريب . وفى البلاد الراقية يغذون شعوبهم بآثار الفنون البديعة فى كل مكان ، حتى فى أنفاق المترو تحت الأرض . ولذلك لا ندهش إذا علمنا كيف تحرص هذه الشعوب على نظافة شوارعها وأماكنها العامة ولا تسمح لأحد بخدش بسيط لهذا الجمال .. إن هذه التربية الفنية فى البيت والمدرسة والشارع هى سر رقى هذه الشعوب التى أمسكت بزمام التقدم الإنسانى . وكل هذا لأنها علمت أنه ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . ولكن إلى جانب طعام الفن لابد من طعام الوجدان .

* * *

ذكريـــات ...

إنها ذكريات أثارها أصحاب المؤلف الثلاثة ، ممن صاحبوه منذ شبابه وذكرهم فى كتبه بالشكر والعرفان : العصا والبيريه والحمار ... وجاء موسم الإجازات وطاب للكائنات المكدودة الركون إلى الراحة والاسترخاء ، فقد انصرف الفرسان الثلاثة : العصا والبيريه والحمار عما يثقل على النفس ، بحثا عن حديث هين لين . فكانت البغية فى حديث الذكريات ..

قالت العصا :

ــ من منا يا ترى الأقدم ؟.. ربما كنت أنا .. فقد وضعت يدى فى يد صاحبى فى آخر العشرينات ...

فقالت البيريه :

ــ بل أنا الأقدم .. فقد وضعنى صاحبى على رأسه فى أوائل أو أواسط العشرينات !..

فقال الحمار :

ــ أنا إذن أقدم الجميع . فقد عرفنى صاحبى منذ ما يزيد عن ثمانين عاما .

قالت البيريه :

ــ فليذكر إذن كل منا الظروف والملابسات التى تم فيها اللقاء . أما أنا فقد كان لقائى به فى باريس . ولم أكن أول ما وضع على رأسه . فقد سبقتنى قبعة فيرانية اللون ، لم يلبث أن نبذها واستبدل بها أخرى سوداء عريضة الأطراف مما يضعه الفنانون فى مونمارتر فى ذلك العهد البعيد. ولكنها أتعبته لاضطراره إلى رفعها كلما أراد التحية، إلى أن اهتدى أخيرا إلىّ أنا ... أى البيريه ، فقد وجدنى مريحة مثل الطاقية المصرية يستطيع أن يطويها ويدسها فى جيبه ، ولا يحتاج إلى رفعها للتحية .. واحتفظ بى وأدخلنى فى مصر وجعل يكتب عنى ويروج لى حتى كثر من يلبسنى ، لما عندى من

مزايا السهولة فى اللبس والرخص فى الثمن والشبه بالطاقية البلدية . وعمّ استعمالى حتى شملت الجيش والشرطة ولكن العجيب أنى فى باريس اليوم كدت أختفى من فوق الرؤوس .. فالرؤوس الآن عارية ..

قالت العصا :

ـــ أما أنا فقد كانت معرفتى به مرتبطة بعمله فى القضاء . فهو عندما عينوه وكيلا للنيابة فى الأرياف ، كان يقوم لتحقيق الجرائم ومعه سكرتير كهل ابيض شعره وجعل له وقارا ، فكان رجال الأمن فى الريف من عمد شيوخ يستقبلون السكرتير بالاحترام على أنه هو وكيل النيابة ، ويهملون الوكيل الأصلى لمظهره الشاب ويحسبونه هو المرؤوس . فأشار بعض العارفين المجربين على صاحبنا إن يحمل عصا لتوحى بأنه هو الرئيس ، إذ لا يعقل فى الريف أن يكون المرؤوس هو الذى يحمل العصا فى حضرة رئيسه ... واشترانى وحملنى فى يده ، فلم يخطئه بعد ذلك العمد والخفراء ، فما أن يحل فى مكان حتى يهرع إليه الجميع موقنين أنه وكيل النيابة ... ومنذ ذلك الوقت وأنا ألازمه ملازمة ذراعه فقد أصبحت عادة من عاداته الراسخة ، بغير مصاحبتى له واتكائه على يتعثر فى طريقه ، وخاصة اليوم فى شيخوخته .

قال الحمار :

ـــ أما علاقتى أنا به فهى أعرق وأوثق . فقد ارتبط صباه بصباى . كان صبيا يلعب فى الغيط بقريته الصغيرة ، وكنت جحشا أمرح وأقفز إلى جانبه وسط البرسيم الأخضر اليانع كلما هل الربيع ... فنشأنا معا وكبرنا معا . وذهب هو إلى المدن ، وبقيت أنا فى الريف . ولكنه كلما جاء إلى القرية سأل عنى ونعود نتناجى بغير لغة وكلام فكل منا يفهم الآخر بغير حاجة إلى حديث ، وقد رق لحالى عندما رآنى فى كبرى يلقى على ظهرى غبيط السباخ وأعمل وأكدح طول يومى من أجل حفنة فول أو شعير ، فكان يوصى بى خيرا ... ثم كنت دائما فى ذاكرته وعلى لسانه وسن قلمه ، يجرى باسمى الأحاديث ويدافع عنى وعن الكادحين المظلومين من أمثالى ، ويحاول أن يزيل ما لحق بى منذ القدم من صفات الذلة والمهانة والسخرية . فقرن اسمى باسمه ...

وهنا ضحكت « العصا » و « البيريه » فى وقت واحد ...

(فى الوقت الضائع جـ ٢)

فقال لهما الحمار :

ـــ ما الذى يضحك فى هذا ؟.

فقالت العصا ومعها البيريه :

ـــ تذكرنا يوما مر فيه بائع كتب متجول ينادى على المقاهى بكتاب « حمار الحكيم » فاستوقفه أحد المشترين وطلب نسخة وهو يقول له : بكم كتاب « الحكيم الحمار » ؟ وقال له زبون آخر : « حمار الحكيم » ؟ هل « توفيق الحكيم » غير اسمه ؟!.

فقال لها الحمار :

ـــ ما دمتم تريدون الضحك فإليكم ما حدث يوما فى جلسة جنح حضرها صاحبنا : اتهم شخص بأنه سب أحد البيكوات بقوله له « يا حمار » فقال له القاضى : « كيف تقول للبيك يا حمار ! » فقال المتهم : هل اللى يقول للبيك يا حمار يعاقب ؟.

فقال له القاضى : طبعا يعاقب . فقال المتهم سائلا : « واللى يقول للحمار يا بيك ؟ فرد القاضى : هذه ليس فيها عقوبة ...

فأسرع المتهم يقول للقاضى : طيب سعيدة يا بيك !!

❊ ❊ ❊

على شط النيل

لم يكن مشى الفرسان الثلاثة « البيريه » و « العصا » و « الحمار » فى الصباح مشيا حثيثا بل كان دائما مشيا متباطئا متمهلا ، كمن يريد تأمل ما يجرى فى الطريق وما يبدو من أحوال الناس . وفى طريق الكورنيش كانت « البيريه » أكثر التفاتا إلى النيل وما يحدث فيه .. ولذلك استوقفت الزميلتين أمام منظر قلما يثير التفات الآخرين ... إنه منظر الصيادين فى قواربهم الصغيرة .. وجمد الثلاثة أمام المنظر لحظة ، إلى أن قالت « العصا » :

ــ وآخرة وقوفنا ؟! قارب صيد عادى ! ماذا فى ذلك ؟

فقالت « البيريه » وهى مستمرة فى مراقبة القارب :

ــ نعم . قارب صيد عادى مثل بقية القوارب .. ولكن انظروا إلى ما بداخله . إنه عالم صغير . أسرة متواضعة . رب الأسرة هذا الصياد الذى يرمى الشباك وهذه زوجته أمام نار وابور جاز تطهو طعاما ، وإلى جانبها طفل رضيع ، والابن الأكبر يساعد أباه ، والأوسط يمسك بالدفة .. وها هى ذى الزوجة قامت بإشارة من الزوج تمسك بالمجدافين لتسير بالقارب فى الاتجاه المطلوب .

فقال الحمار :

ــ حقا .. أسرة متكاملة متعاونة .. توزيع العمل فيها يشبه التوزيع الموسيقى ،

فبادرته العصا بقولها :

ــ اسكت من فضلك ! لا تتكلم أنت عن الموسيقى .. لا تذكرنا بأنكر الأصوات !

واستمرت البيريه فى تأمل القارب وهى تقول :

ــ لا شك أن سكان هذا القارب الصغير لا يشكون من أزمة المساكن ولا يعرفون شيئا عن خلو الرجل وتكاليف الديكور ، ومشكلات الشقق المفروشة ، والشرفات

المطلة على النيل ، وما تدخلها الشمس وما لا تدخلها ، وحى الزمالك أو الجيزة أو روض الفرج .. لا شأن لهم بكل ذلك .. فهذا العالم البسيط الذى يملكونه يستطيع أن يمنحهم حرية الانتقال فى كل حى ، ويستقبلون كل شمس وكل اتجاه .. والنيل كله لهم ، يحميهم من برد الشتاء بأشعة شمسه ومن قيظ الصيف بلطيف نسيمه . فلا حاجة لهم بالمعاطف والكوفيات ولا بالحرير والمهفهفات ولا بطالة عندهم ولا تسكع فيما لا يفيد .

فقال الحمار :

ـــ نعم .. جميل كل هذا ولكن .. حياتهم هذه بين الماء والهواء ترادف أرزاقهم المعلقة أيضا بالماء والهواء ! إنهم لا يستطيعون أن يطالبوا السمك فى الماء بمرتب ثابت ! ولا الهواء والسماء بمظلة تأمينات !

فقالت البيريه :

ـــ يظهر أن السماء هى مظلة الذى يعيش فى الهواء .. أما الذى يعيش تحت سقف من الأسمنت والحديد فهو الذى فى حاجة إلى مظلة أخرى غير السماء !

فقال الحمار :

ـــ ومن قال لكم إن الذى يعيش فى الهواء لا حق له فى المظلة الأخرى مع مظلة « السماء » ! لماذا يحرم ؟!

فقالت البيريه :

ـــ لأنه فى وسط الماء .. كيف نصل إليه ؟ لا هو عامل فى مصنع ولا فلاح فى غيط ؟!

وتململت العصا من الضجر وقالت :

ـــ احشروه تحت أى مظلة وخلصونا !

وتحركت بهم لاستئناف المسير .. وساروا ثلاثتهم فى صمت .. إلى أن أشرفوا على جماعة تتشاجر فى الطريق . كان التضارب بالأيدى والأرجل بين الطرفين .. ولم يقف الفرسان الثلاثة للمشاهدة أو لمعرفة السبب . فهم فى مثل هذه الأحوال يرون الأصوب تجنب التدخل والابتعاد عن البهدلة .. فأسرعوا فى المشى بعيدا عن الخناقة ،

وإذا بشخص من أحد الطرفين قد انسل من وسط المشاجرة ولحق بهم يريد انتزاع العصا قائلا :

ــ عن إذنكم .. اسمحوا لنا بالعصا لحظة واحدة نضرب بها الجماعة الأوغاد دول !

ولم يكد يتم كلامه حتى حلق به واحد من الطرف الآخر جاء هو أيضا لانتزاع العصا لنفس الهدف . وقامت بين الاثنين معركة حول العصا وتراشق بالسباب .. وأمسك كل منهما بجزء من العصا يجذبه ناحيته .. واشتد الجذب والشد ، والعصا المسكينة تكاد تنخلع رقبتها فى يديهما وتصيح بالزميلتين لإنقاذها . ولم تستطع البيريه أن تفعل شيئا غير الكلام بالحسنى والمنطق قائلة :

ــ يا اخوانا .. عيب ...هذه العصا ليست للضرب ! ولكن صوتها ذهب هباء بين صخب الشتائم ورعد الصياح .. ولجأت البيريه إلى الزميل الحمار قائلة :

ــ كيف ننقذ زميلتنا العصا من هذه الورطة ؟! الكلام لا فائدة منه كما رأيت . ألا تستطيع التدخل بالرفص ؟

فقال الحمار :

ــ الرفص ؟! أرفص ؟! أنا نسيت الرفص من زمن بعيد ! أنا لم أعد أستخدم الحافر .. أنا الآن أستخدم العقل !

فقالت البيريه فى تهكم :

ــ العقل ؟! الآن ؟! أفى عالم عاد إلى استخدام الحوافر ؟!

* *

الفنان والجمهور

قالت العصا : قضية الفنان والجمهور قديمة . وهى تثير التساؤل : هل من واجب الفنان أن يحترم الجمهور فى كل الأحوال ؟..

قالت البيريه : أذكر فى ثلاثينيات هذا القرن أن حضرت المهرجان الفنى الكبير الذى يقام فى مدينة سالزبورج ، وكان من أهم برامجه حفلات الموسيقِى العظيم « توسكانينى » وهو فى قمة المجد العالمى . ومن الجماهير من حضرت خصيصا من أجله قادمة من كل فج عميق . وأنا منهم . فما أن ظهر حتى دوت القاعة الواسعة بتصفيق هز أركان المكان هزا ، فما الذى فعله ذلك الفنان ؟

قال الحمار : التفت طبعا إلى الجماهير وانحنى لها طويلا ..

قالت البيريه : على العكس أدار ظهره للجماهير والتفت إلى فرقته الموسيقية وأمرها بالشروع فى العزف .

قالت العصا : ما معنى هذا ؟!. أهو عدم احترام للجمهور ؟!.

فقال البيريه : معناه احترام للفن . فهو قد أراد أن يفهم ذلك الجمهور أن تصفيق التحية يجب أن يوجه للفن وليس لشخصه . لأن شخصه لا يساوى شيئا بغير فنه . ولكى تكون التحية للفن فإنه يجب أن تكون التحية والتصفيق بعد أن يؤدى هذا الفن ويعرضه . ولذلك رفض أن يجعل شخصه يلتفت ليتقبل التحية قبل عرض الفن ...

وهنا سأل الحمار فى عجب :

ـــ وماذا فعل الجمهور ؟!.

قالت البيريه : فهم الجمهور قصده وصمت فى الحال تأدبا ، وجعل يصغى إلى الفن فى سكون وخشوع ـــ إلى أن انتهى العزف فالتفت الفنان توسكانينى إلى الجمهور الذى استقبله بالتصفيق المدوى ، وعندئذ فقط انحنى الفنان العظيم للجمهور ، وقد تقبل منه التحية والتقدير ، مسرعا بالإشارة إلى فرقته كلها كى تنهض لتتقبل معه ما

تقبل باسمها من تحية وإعجاب ...

فقالت العصا : حقا . هذا احترام للفن .

وقال الحمار : وهذا أيضا احترام للجمهور . لأن الجمهور الذى يستحق الاحترام هو الجمهور الذى يحترم الفن ..

قالت البيريه : إن الجماهير فى البلاد المتحضرة لا يمكن أن تصفق تحية للفنان إلا بعد العرض . ولعل ما رأيته فى حالة توسكانينى كان استثناء لظروف سنه فى أواخر أيامه فلم تملك الجماهير نفسها من تحيته عند رؤيته ، ولكن عندما صحح لها تصرفها وذكرها بواجبها نحو الفن فهمت فى الحال حقيقة الموقف وما ينبغى أن يكون التصرف ..

قال العصا : أذكر أن الأمر كان يحدث على هذا النحو حتى فى بلادنا فى العشرينات والثلاثينات وما قبلها . كانت جماهير المسرح لا تصفق للممثلين إلا بعد العرض . أما اليوم فإنه ليدهشنى ويخجلنى أن أرى الجماهير تستقبل كل ممثل يظهر بالتصفيق ، وهو يترك دوره وينسلخ من فنه لينحنى وينحنى ليستدر التصفيق ، على نحو يثير الرثاء على مصير الفن وكرامة الفنان الذى هبط إلى شحاذ يستجدى التصفيق ...

وعاد الحمار يسأل : وعلى من تقع المسئولية ؟ على الجمهور الذى يصفق قبل عرض الفن ، أو على الفنان الذى ينحنى متقبلا التحية لشخصه قبل أداء فنه ؟..

قالت البيريه : المسئولية كلها تقع على الفنان . لأن الفن هو الذى يربى الجماهير ويهذب ذوقها ويغيرها ويشكل مصائرها . فالفنان الحقيقى الذى يفعل ما فعل توسكانينى عليه هو أن يصحح تصرف الجمهور بكل هدوء ، بأن يعتبر التصفيق فى وقت غير مناسب كأنه لم يكن ، ويمضى هو فى عرض فنه ، حتى يفهم الجمهور السلوك القويم تجاه الفن والفنان ...

قالت العصا : نحن نتكلم عن الفنان ... الفنان الحقيقى الذى يحترم الفن قبل أن يحترم الجمهور . ولكن ... هل هو موجود عندنا إلا فى النادر ..

* * *

تاكسى

كان الصباح منذرا بالدفء . وعند المشى والشمس ساطعة يقترب الدفء من الحر ويصبح المشى مرهقا . وهذا ما شعر به الفرسان الثلاثة : « البيريه » و « العصا » و « الحمار » فى منتصف الطريق . فقالت البيريه :

ــ إذا أردنا مواصلة المشوار فلا بد من « تاكسى » ...

فصاحت العصا ومعها الحمار :

ــ تاكسى ؟!. أهذا ممكن ؟!. جرى فى عقلك حاجة ؟!.

ــ ولِمَ لا ؟! ها هى ذى التاكسيات تملأ الشوارع ...

ــ فلنحاول إذن ... لعل وعسى !...

وكانت المحاولة اليائسة من أجل إيقاف تاكسى من تلك التاكسيات التى تسابق الريح ولا تقف لمخلوق ...

وقالت العصا بعد أن تعبت من الإشارة إلى هذه التاكسيات لا بالوقوف بل بمجرد إلقاء نظرة :

ــ حتى النظرة إلينا لا نظفر بها من السيارة .. نظرة يا ست !..

وقالت البيريه فى صيحة :

ــ انظروا .. انظروا .. هذا التاكسى الخالى بلا ركاب .. إنه مع ذلك يجرى بأقصى سرعة كأنه فى ميدان سباق !

وقالت العصا :

ــ العجيب أن أكثر التاكسيات المشغولة لا تحمل غير راكب واحد يجلس إلى جوار السائق ، وبقية المقاعد خالية كأنها تتحدى جميع الواقفين المرهقين من طول الوقوف والانتظار المتطلعين إلى مقعد ينقذهم من هذا البلاء والعياذ بالله ...

وقالت البيريه :

ـــ وما العمل الآن ؟! ليس لنا إلا أن نواصل السير على الأقدام ، فجحيم الحر والشمس خير من جحيم هذا الأمل الكاذب والسراب الخادع …

ومشى الفرسان الثلاثة فى إطراق ويأس ومذلة … وإذا بأحدهم يصيح فجأة :

ـــ اقرصونى !.. هل أنا فى حلم ؟!. أليس هذا الواقف على ناصية الشارع شبح تاكسى ؟!.

فصاح زميلاه :

ـــ نعم … نعم … إنه تاكسى بالفعل … وتاكسى خال … وسائقه واقف إلى جواره يتناول فطوره …

ـــ حقا … سائقه فارش منديله على الرفرف وعليه الطماطم والطعمية والجبن والفجل والبصل …

جاءنا الفرج !.

وأسرع الثلاثة إلى التاكسى فابتسم لهم السائق وأشار إلى طعامه قائلا :

ـــ تفضلوا معنا !..

فشكروه وانقضوا بسرعة على باب التاكسى يريدون الركوب .. وإذا بالسائق يمنعهم بلطف :

ـــ لا مؤاخذة … مشغول !..

فصاح الثلاثة فى يأس :

ـــ يا نهار زى بعضه !.. حتى الفطور مع السواق أسهل من ركوب التاكسى !.

والتفتت العصا والبيريه إلى زميلهما الحمار قائلتين :

ـــ ورغم ذلك معنا ركوبة تسهل لنا الأمور !.

وفطن الحمار وقال :

ـــ ما هو قصدكم من فضلكم ؟!.

ـــ لا … لا شيء … نحن فقط نتكلم بصفة عامة على سبيل المثال : لو أباحوا

استخدام الحمير لحل أزمة المواصلات ... وجعلوا فى كل حى من الأحياء موقف حمير كما كان الحال فى القرن الماضى ومطلع القرن الحالى ... أما كان هذا أهون من هذا الكرب الذى نحن فيه ؟!..

ــ دعكم من هذا التخريف ولنفكر فى حلول عملية ...

ــ فكر لنا أنت بعقلك الراجح ...

ــ يقال إننا فى بلد اشتراكى ... فهل من الاشتراكية أن يستأثر راكب واحد بالسيارة التاكسى وفيها مقاعد خالية تتطلع إليها أكداس من الجموع الواقفة ؟!. لماذا لا يسمح لمثل هذه السيارة بأن تعرض مقاعدها الخالية على من يقبل من هذه الجموع شغلها ؟..

ــ المانع هو أن بعض المسئولين فى بلدنا ينظرون إلى كل حل من زاوية الاعتراض ، وينتهى الأمر إلى إبقاء كل شىء على حاله ولا داعى لوجع الدماغ !.

فقال الحمار :

ــ إذن لا داعى إلى وجع دماغنا نحن أيضا ... مادامت الأشياء لا تؤخذ على سبيل الجد ! وبالمناسبة ... عندما عزم علينا السائق الكريم بتناول الفطور معه هل كان جادا حقا ؟!.

فقالت البيريه :

ــ أشك ...

فقال الحمار :

ــ ألم يقل لنا : « تفضلوا معنا » ؟!.

فقالت العصا :

ــ هذه العبارة فى بلدنا مجرد كلام ... ككل كلام !..

فقال الحمار :

ــ صحيح ... وأذكر أنه فى ذات يوم كنت أسير فى الطريق قاصدا مكانا بالذات وإذا بشخص لا أعرفه يشير إلىّ بالتحية وهو سائر فى الاتجاه العكسى قائلا لى :

« تفضل معنا » ، واستمر فى سيره حتى اختفى عن نظرى ... وتركنى أردد عبارته وأتعجب : اتفضل معه ؟! فين ؟... ولماذا ؟!.

فقالت البيريه ومعها العصا :

ـــ لا تدقق !.. أنسيت أننا فى بلد الكلام فى ناحية والعمل فى ناحية ..

* * *

الحب فى جهنم

طلع الصيف عندنا فى أكثر أيامه غبار يعمى الأبصار ، وحر لافح يشوى الوجوه ، وشمس تلقى على الرؤوس نارا من جهنم والعياذ بالله . والويل لمن يمشى فى الطريق ساعة الظهيرة . فما من شجرة تظله وتدرأ عنه السعير.. وشاء الحظ العاثر للفرسان الثلاثة : « البيريه » و « العصا » و « الحمار » السير فى ذلك الوقت فى أحد الطرقات ، وقد أرهقهم القيظ وقطع أنفاسهم وأسال العرق على أجسامهم ، وهم يشتدون فى المشى للخلاص من هذا الكرب والوصول إلى البيت .. وإذا بشخص قد اعترض طريقهم وقال فى أدب :

ـــ من فضلكم .. أتسمحون لى بسؤال ؟.

فقالت العصا فى ضيق :

ـــ أظن الوقت غير مناسب ..

فقال الشخص :

ـــ إنه مجرد سؤال بسيط ..

فقالت البيريه رغبة فى الخلاص :

ـــ تفضل واسأل بسرعة ، لأن الحر شديد كما ترى !.

فقال الشخص :

ـــ سؤالى هو .. هو ..

فقالت العصا :

ـــ أظن تريد أن تسألنا عن اسم شارع ..

فقال الشخص :

ـــ لا .. لا .. ليس السؤال عن شارع .. إنما هو عن .. عن ..

فقال الحمار نافد الصبر :

ـــ تكلم يا حضرة المحترم .. تكلم وخلصنا .. عرقنا سال من لهيب الشمس وجحيم الحر ..

فقال الشخص :

ـــ حالا .. حالا .. سؤالى بسيط .. أريد أن أعرف فقط وأسأل حضراتكم : ما هو الحب ؟..

فصاح الثلاثة فى نفس واحد :

ـــ الحب ؟!!.

فقال الشخص :

ـــ نعم الحب ... إنه شىء يبدو بسيطا واضحا بديهيا ، ولكن إذا نحن تعمقنا فيه وحاولنا دراسته بأناة وصبر وتفصيل فإن أغواره ستكشف لنا عن غوامض وغرائب ومعضلات .. ولا بأس من أن أقص عليكم قصة على سبيل المثال .. طويلة بعض الشىء ولكنها تستحق أن ..

وقاطعه الثلاثة وقد هموا بالانقضاض عليه :

ـــ أنت الذى تستحق أن !!.

أرادت العصا أن تنزل على أم رأسه .. ولكن البيريه استوقفتها وهى تقول :

ـــ بل الذى يستحق هو نحن الثلاثة .. نحن الذين استمعنا إليه وصدقناه وهو يقول إن سؤاله بسيط ..

وقال الحمار :

ـــ مهلا .. مهلا .. نسمع القصة أولا ..

وتشجع الشخص وقال :

ـــ قصة طريفة والله العظيم .. اسمعوها أولا ثم احكموا ..

فقالت العصا وهى تتلفت حولها :

ـــ لو كان هنا على الأقل شجرة نستظل بها ..

وقالت البيريه :

ـــ أمرنا لله .. تفضل قص القصة واختصر من فضلك وارحمنا يرحمك الله من نار الجحيم ويدخلك بمشيئته ورضوانه جنة النعيم ..

فقال الشخص :

ـــ جمعا إن شاء الله !..

فقالت العصا والبيريه :

ـــ طبعا لنا النعيم .. فقد استوفينا الآن بعض نصيبنا من الجحيم ..

فقال الشخص :

ـــ لا يوجد على الأرض جحيم أفظع من جحيم الحب !..

فقال الحمار :

ـــ يا حفيظ !.. يظهر أنك مكوى ..

فقال الشخص :

ـــ ومشوى ..

واشتد لفح الشمس وأسالت شواظ الحر العرق من الفرسان الثلاثة وهم لا يدرون ماذا يفعلون ، وقد تورطوا ولم يبق أمامهم إلا الصبر واحتمال الاستماع إلى القصة الطويلة التى يريد أن يقصها عليهم بتفصيلها هذا المحب الولهان والمعذب التعبان .. ولا يدرى غير الله كم مر بهم من وقت وهم يتقلبون على جمر ذلك الحب الذى يصغون كرها إلى قصته وليس لهم فيه ناقة ولا جمل ، إلا رائحة الشواء والكى من أجسادهم المحترقة ، ليس بالحب ، ولكن بالكرب .. وقد أقسموا فى نفوسهم ألا يقفوا بعد اليوم لشخص يريد طرح سؤال ، فى أيام الصيف الطوال ..

وهنا قالت العصا :

ـــ الحمد لله أن أعصابنا لم تفلت منا فيحدث ما لا تحمد عقباه ..

فقال الحمار :

ـــ إذا كنا لم نحتمل الكلام فى الحب فكيف بالكلام فى غيره ؟! يظهر أننا فى حاجة

إلى إجازة فى أشهر الصيف ..

قالت البيريه :

ــ فعلا .. إنى لم أعد أطيق .. ليس الكلام فقط بل حتى التفكير .. من رأيى أن نسكت .. ونستريح ونريح .. ولنفترق الآن على خير .. سلام .. وقاموا إلى الإجازة . وأنا معهم ..

* * *

رقم الإيداع ٢٩٢١ / ٨٨
الترقيم الدولى ٢ ــ ٠٣٨٢ ــ ١١ ــ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه